

محاسن الشكر

قال بعض الحكماء: صُنْ شُكْرَكَ عَمَّنْ لَا يَسْتَحِقُّهُ، واسْتَرْ ماء وجهك بالقناعة.
وقال الفضل بن سهل: مَنْ أَحَبَّ الْإِزْدِيَادَ مِنَ النَّعْمِ فَلْيَشْكُرْ، وَمَنْ أَحَبَّ الْمُنْزَلَةَ عِنْدَ سُلْطَانِهِ فَلْيَكْفُ^(١)، وَمَنْ أَحَبَّ بَقَاءَ عِزِّهِ فَلْيَسْقِطْ دَأْلَتَهُ وَمَكْرَهُ.
ومن ذلك قولُ رجلٍ لرجلٍ شَكَرَهُ في معروف:

لقد ثبتت في القلب منك محبةٌ كما ثبتت في الراحتين الأصابع^(٢)
[الكامل]

قال: واصطنع رجل رجلاً، فسأله يوماً، أَتُحِبُّنِي يا فلان؟ قال: نعم؛ أَحْبَبْتُكَ حُبًّا لَوْ كَانَ فَوْقَكَ لِأَظْلَمَكَ، وَلَوْ كَانَ تَحْتَكَ لِأَقْلَمَكَ.

وقال كِسْرَى أَنْوِشِرْوان: المنعم أفضلُ من الشاكر، لأنَّه جعل له السبيل إلى الشكر.
واختصر حبيبُ بن أوسٍ مِنْ هَذَا شَيْئًا في بِضْرَاعٍ واحد، فقال^(٣):
* هَا نَ عَلَيْنَا أَنْ نَقُولَ وَتَفْعَلَا *

[الطويل]

وقال بشار:

أَتْنِي عَلَيْكَ وَلِي حَالٍ تُكْذِبُنِي فِيمَا أَقُولُ وَأَسْتَحْيِي مِنَ النَّاسِ
قَدْ قُلْتُ إِنَّ أَبَا حَفْصٍ لِأَكْرَمُ مَنْ يَمِشِي، فَمَا صَنَعْتَنِي فِي ذَاكَ إِفْلَاسِي^(٤)
[البسيط]

ولأبي الهول في مثله:

فَبَإِنِّي إِذَا مَدَحْتُكَ يَا بَنَ مَعْنٍ رَأَيْتُ النَّاسَ فِي رَمَضَانَ أَزْفَى^(٥)
فَبِإِنْ أَكَّ أَهْبَتْ عَنْكَ بِغَيْرِ شَيْءٍ فَلَا تَفْرَحُ كَذَلِكَ كَانَ ظَنِّي
[الوافر]

(١) كَذَا فِي الْمَحَاسِنِ وَالْأَضْدَادِ ٣٧، ك، وَفِي ل: «فَلْيَكْفِهِ».

(٢) فِي الْمَحَاسِنِ وَالْأَضْدَادِ: «مَنْكَ الْمُوَدَّةُ» وَالْبَيْتُ لَقَيْسِ بْنِ ذَرِيحٍ، دِيوَانُهُ ١٠٧.

(٣) مَطْلَعُ قَصِيدَةٍ يَمْدَحُ فِيهَا مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ الْمَلِكِ الزِّيَّاتِ، وَبَقِيَّتُهُ:

* وَتَذَكَّرْ بَعْضَ الْفَضْلِ عَنْكَ وَتَفْضُلَا *

(٤) الْمَحَاسِنِ وَالْأَضْدَادِ ٤١، وَبَعْدَهُ هُنَاكَ:

حَتَّى إِذَا قِيلَ: مَا أَعْطَاكَ مِنْ صَفْدٍ؟ • طَاطَأْتُ مِنْ سُورٍ حَالِي عِنْدَهَا رَأْسِي

(٥) الْمَحَاسِنِ وَالْأَضْدَادِ ٤٢.

ولآخر في مثله:

لحى الله قَوْمًا أعجبتهُم مدائحي فقالوا خِفَاتًا في ملام وفي عَتَبِ
أبا حازمٍ تَمَدَح! فقلت مُعَذَّرًا: هبوني امرأً جَرِيت سيفي على كَلْبِ
[الطويل]

ولبعض المحدثين:

عثمانُ يعلمُ أنَّ الحمدَ ذو ثمن لكنَّهُ يَشْتَهِي هَذَا بِجَنٍّ^(١)
والناسُ أكيسُ من أن يَحْمَدُوا أَحَدًا حتى يَرَوْا قَبْلَهُ آثارَ إِحْسَانٍ
[البسيط]

وقال آخر:

فلو كان يستغنى عن الشكر سيّد لِعِزَّةٍ مُلْكٍ أو عُلوِّ مكانٍ^(٢)
لما أمر الله العبادَ بشكره فقال اشكروني أيها الثقلان
[الطويل]

الباهلي، عن أبي فروة، قال: أخبرني الحلبي، قال: مكتوب في التوراة: اشكر لمن أنعم عليك، وأنعم على من شكرك، فإنه لا زوال للنعم إذا شكرت، ولا إقامة لها إذا كفرت. والشكر زيادة في النعم وأمان من الغير.

قيل: قال رسول الله ﷺ: «خمس يعاجل صاحبهن بالعقوبة: البغي والغدر، وعقوق الوالدين، وقطيعة الرحم، ومعرفة لا يشكر».

وفي حديث مرفوع: «دعاء المنعم على المنعم عليه مستجاب».

وقيل: أنشد عمر بن الخطاب رضى الله عنه الحطينة هذا البيت؛ وعنده كعب الأخبار: مَنْ يَفْعَلُ الخَيْرَ لا يَعمِدُ جَوَازِيَهُ لا يذهب العرفُ بين الله والناسِ^(٣)
[البسيط]

فقال كعب: يا أمير المؤمنين، هذا البيت الذى قال^(٤)، مكتوب في التوراة. قال عمر: وكيف ذاك؟ قال: في التوراة مكتوب: «من يصنع المعروف لا يضع عندى، لا يذهب العرف بينى وبين عبدي».

قيل: ودخل أبو مسلم صاحب الدولة على أبي العباس - وأبو جعفر المنصور عنده - فقال أبو العباس لأبي مسلم: يا عبد الرحمن، هذا أبو جعفر عبد الله بن محمد مولاك، قال: قد رأيت مجلسه يا أمير المؤمنين، ولكن هذا المجلس لا يقضى فيه حق غيرك.

(٣) ديوانه ٥٤

(٤) ل: «يقال».

(١) المحاسن والأضداد ٤٢.

(٢) المحاسن والأضداد ٤٢.

فصل لكتاب^(١) في مثله: ولست أقابل أياديك، ولا أستديم إحسانك إلا بالشكر، الذي جعله الله عز وجل للنعم حارساً، وللحق مؤدياً، وللمزيد سبباً.

وقيل لرسول الله ﷺ: أليس^(٢) قد غُفِرَ لك ما تقدّم من ذنبك وما تأخر؟ قال: أفلا أكون عبداً شكوراً.

وفي الحديث، أن رجلاً قال في الصلاة خَلَفَ رسول الله ﷺ: اللهم ربنا لك الحمد حمداً زاكياً طيباً مباركاً فيه. فلما انصرف، قال رسول الله ﷺ: «أيكم صاحب الكلمة؟» قال أحدهم: أنا يا رسول الله فقال: «لقد رأيت بضعة وثلاثين ملكاً يبتدرون أيهم يكتبها أولاً».

وقيل: نسيان النعمة أول درجات الكفر.
ولابن المقفع:

منتت على قومي فأبدوا عداوةً فقلت لهم كفُّ العداوة والشكر
[الطويل]

وقال آخر:

ألا في سبيل الله ودَّ بذلته لمن لم يكن عندي لمعاره أهلاً
ولكن إذا فكرت فيه وجدتنى بحسنى إليه قد أفدت به عقلاً
[الطويل]

وقال أمير المؤمنين على بن أبى طالب: لا تدع المعروف لكفر من كفره فإنه يشكرك عليه أشكر الشاكرين.

وقد قيل في ذلك:

يدُ المعروف غنمٌ حيث كانت تحمّلها شكورٌ أم كفور^(٣)
فعند الشاكرين لها جزاءٌ وعند الله ما كفر الكفور
[الوافر]

قال بعضهم: ما أنعم الله على عبد نعمةً فشكر ذلك إلا لم يحاسبه على تلك النعمة.
وقال بعض الحكماء: عند التراخي^(٤) عن شكر المنعم تعلُّ عظام النعم.

قيل: وكان رسول الله ﷺ كثيراً ما يقول لعائشة رضى الله عنها: ما فعل بيتك أو بيت اليهودى؟ فتقول:

يجزيك أو يُثنى عليك وإنَّ من أثنى عليك بما فعلت كمن جَزَى
[البسيط]

(١) كذا في ل. وفي ك: «لكتاب».

(٣) المحاسن والأضداد ٣٩.

(٢) ك: «أوليس».

(٤) ك: «التراضى».

فيقول عليه وعلى آله السلام: «قد صدق يا عائشة، إن الله جلّ وعزّ إذا أجرى لرجل على يدى رجلٍ خيراً فلم يشكره، فليس لله بشاكر».

قيل: وقيل لذي الرُّمة: لم خصصت بلال بن أبي بردة بمدحك؟ فقال: لأنه وطأ مضجعي، وأكرم مجلسي، فحقّ لكثير معروفه عندي أن يستولي على شكري.

ومنهم من يقدم ترك مطالبة الشكر، وينسبه إلى مكارم الأخلاق، من ذلك ما قاله بزرجهر: من انتظر بمعروفه شكراً فقد استدعى^(١) عاجل المكافأة.

وقال بعض الحكماء: كما أن الكفر يقطع مادة الإنعام، فكذلك الاستطالة بالصنعة تمحق الأجر.

وقال على بن عبيدة: من المكارم الظاهرة، وسنن النفس الشريفة^(٢) ترك طلب الشكر على الإحسان، ورفع الهمة عن^(٣) طلب المكافأة، واستقلال الكثير من الشكر، واستقلال الكثير مما يبذل من نفسه.

(١) كذا في ك، وفي ل: «استدعاه».

(٢) ك: «الكرية».

(٣) ك: «عن».

مساوئ الشكر

قال بعض الحكماء: المعروف إلى الكرام يُعقِب خيراً، والمعروف إلى اللئام يُعقِب شراً؛ ومثل ذلك مثل المطر، يشرب منه الصدف فيُعقِب لؤلؤاً، وتشرب منه الأفاعى فتُعقِب سباً.

وقال سفيان: وجدنا أصل كلِّ عداوة اصطناع المعروف إلى اللئام.

قيل: وأثار جماعة^(١) من الأعراب ضبعاً، فدخلت خبياء شيخ منهم، فقالوا: أخرجها، فقال: ما كنت لأفعل، وقد استجارت بي، فانصرفوا وكانت هزيلة، فأحضر لها لقوحاً^(٢) فجعل يسقيها حتى عاشت، فنام الشيخ ذات يوم، فوثبت عليه فقتلته، فقال شاعرهم في ذلك:

ومن يصنع المعروف في غير أهله	يلقى الذي لاقى مُجبرٌ أم عامرٌ
أعد لها لما استجارت بقربه	غذاء من البان اللقاح الغزائر
وأسمتها حتى إذا ماتت	فرته بأنياب لها وأظافر
فقل لِدوى المعروف: هذا جزاء من	يجود بمعروف إلى غير شاكر ^(٣)

[الطويل]

قيل: وأصاب أعرابيٌ جرّو ذنب، فاحتمله إلى خبياته، وقرب له شاة، فلم يزل يمتص من لبنها حتى سمين وكبر، ثم شدَّ على الشاة فقتلها، فقال الأعرابي:

غذتك شويتي ونشأت عندي	فما أدراك أن أباك ذيبٌ
فجعت نسيّةً وصغار قومٍ	بشائهم وأنت لهم ربيب ^(٤)
إذا غلبت طباع الشر فيه	فليس لغيرها فيه نصيب ^(٥)

[الوافر]

ويروى:

* نشأت مع السخال وأنت جرّو *

ويضرب المثل بسنيمار، وكان بنى للنعمان بن المنذر الخوَرَنَق، فأعجبه فكره أن يبني لغيره مثله، فأمر به فرُمِيَ من أعلاه حتى مات، فقتل فيه:

(٣) المحاسن والأضداد ٤٠.

(٤) ك: «بنية».

(١) ك: «رجل».

(٢) اللقوح: الناقة الحلوب.

(٥) رواية البيت في المحاسن والأضداد:

إذا كان الطباع طباع سوء فليس بنافع أدب الأديب

جَزَّتْنَا بَنُو سَعْدٍ بِحُسْنِ بِلَاتِنَا جَزَاءَ سِنَمَارٍ وَلَمْ يَكُ ذَا ذَنْبٍ^(١)
[الطويل]

وُيْرَوَى: «وما كان ذا ذنب».

وفي المثل: سَمْنٌ كَلْبِكَ يَأْكُلُكَ.

وقال بعضهم:

وَإِنِّي وَقَيْسًا كَالْمَسْمَنِ كَلْبُهُ فَخَدَّشَهُ أَنْيَابُهُ وَأَظَافَرُهُ
[الطويل]

محاسن الدَّهَاءِ وَالْحِيلِ

ذكروا أنَّه لم يكن في ملوك الْعَجَم أَدْهَى من كسرى أنوشروان، وأنَّ الحَزَرَ كانت تُغَيَّر في سلطان فارس حتَّى تبلغ هَمْدَانَ والمَوْصِلَ، فَلَمَّا مَلَكَ أنوشروان، كتب إلى مَلِكِهِمْ، فخطب ابنته على أن يزوجه أيضًا ابنته، ويتوَادَعَا ويتفرَّغَا إلى سائر أعدائهما، فأجابه إلى ذلك، وعَمِد أنوشروان إلى جارية من جواريه نفيسة، فزفَّها إلى صاحب الحَزَرَ، وأهدى معها ما يشبه أن يهدى مع بنات الملوك.

وزفَّ صاحبُ^(١) الحَزَرَ إلى أنوشروان ابنته، فلما وصلت إليه قال لوزرائه: اكتبوا إلى صاحب الحَزَرَ: لو التقينا^(٢) وأكَّدنا المودَّةَ بيننا! فأجابه إلى ذلك ووَعَدَه موضع الدَّرْبِ^(٣) فالتقيا فكانا يَخْلُوان في لذَّتهما. ثم إن أنوشروان أمر قائدًا من قُوَّاده أن يختار ثلاثمائة رجل من أشدَّ أصحابه، فإذا هدأت العيون أغار في ناحية من عسكر الحَزَرَ.

ففعل ذلك، فلَمَّا أصبح بعث إليه صاحب الحَزَرَ: ما هذا! ينهب عسكرى البارحة! فأنكر ذلك، وقال: لم توتَّ من قبلي. فأمهله أيامًا، ثم عاد إلى مثلها، ففعل ذلك ثلاث مرَّات، في كلِّ ذلك يعتذر إليه أنوشروان، ويسأله البحث، فيبحث فلا يقف على شيء، فلَمَّا طال ذلك، دعا صاحبُ الحَزَرَ بقائده من قُوَّاده، وأمره بمثل ذلك، فلما أصبح بعث إليه أنوشروان: ما هذا! أتستبيح عسكرى البارحة! فأرسل إليه: ما أسرع ما ضجرت! قد فُعلَ هذا بعسكرى ثلاث مرَّات، وإنما فُعلَ بك مرَّةً واحدة!

فبعث إليه أنوشروان: إنَّ هذا عملُ قوم يريدون أن يفسدوا بيننا وعندي رأئى إن قبلته! فقال: وما هو؟ قال: تدعنى أبنى حائطًا بينى وبينك، وأجعل عليه بابًا فلا يدخل عليك إلا من تحب، ولا يدخل على إلا من أحب. فأجابه إلى ذلك، وتحمل ومضى.

وأقام أنوشروان، فأمر فُبَيَّ بالصخر والرصاص حائطٌ عَرَضُه ثلاثمائة ذراع؛ حتَّى ألحقه برءوس^(٤) الجبال! وجعل عليه أبواب حديد^(٥)، فكان يحرسه مائة رجل، بعد أن كان يحتاج إلى خمسة آلاف رجل، فلما فرغ من السدِّ وقبِدَ القنَدُ^(٦) في البحر، وأحكِمَ الأمر، سرَّ سرورًا شديدًا،

(١) ك: «ملك».

(٢) ك: «ألو».

(٣) الدرب: طريق يسلك: ويطلق على موضع يهاوند.

(٤) ك: «برأس الجبل».

(٥) ك: «أبوابًا من حديد».

(٦) كذا وردت الكلمة في الأصول، وفي المسعودى ٢: ١٩٧ (طبع أوربا): ويسمى هذا الموضع من السور في البحر القيد مانعًا للمراكب في البحر إن وردت من بعض الأعداء. وانظر أيضًا ابن الفقيه ٢٨٩.

فأمر أن يُنصب على الفند سريره ويفرش له عليه، ثم قام فرقى إليه، وأغفى عليه، فطلع طالع من البحر، سد الأفق بطوله، وأهوى نحو الفند، فنار الأساورة إلى قسيهم. فانتبه الملك فقال: ما شأنكم؟ أمسكوا، لم يكن الله عز وجل ليُلهمني الشخوص عن وطني اثنتي عشرة سنة، فأسد ثغراً يكون عزاً رعيّتنا ورداء ومُرتقى لعباده، ثم يسلط على^(١) دابة من دواب البحر.

فتنحى الأساورة، وأقبل الطالع نحو الفند، فذكر الموبد أن الله جل وعز أنطق ذلك الحيوان، فقال: أيها الملك، أنا ساكن من سكان هذا البحر، وقد رأيت هذا الفند مشدوداً سبع مرات، وخراباً سبع مرات وأوحى الله جل وعز إلينا معشر سكان هذا البحر، أن ملكاً عصره عصرك، وصورته صورتك، يبعثه الله جل وعز يسد هذا الثغر إلى الأبد^(٢)، وأنت ذلك الملك، فأحسن الله على البر معونتك.

ثم غاب عن بصره كأنما غاب في البحر، أو طار في الجو، وسأل أنوشروان عند فراغه من ذلك السد عن ذلك البحر فقيل: هو ثلاثمائة فرسخ في مثلها، وبينه وبين بيضاء الحزر مسيرة أربعة أشهر على هذا الساحل، ومن بيضاء الحزر إلى الفند الذي بناه إسفنديار مسيرة شهرين.

فقال: أنوشروان: لا بد من الوقوف عليه والنظر إليه، قالوا: أيها الملك، إنه طريق لا يطمع في سلوكه موضع فيه يقال له دهان شير، يريد فم الأسد، وفيه دُرْدُور^(٣) لا يكاد تسلم فيه سفينة، قال أنوشروان: لا بد من ركوب هذا البحر، والنظر إلى هذا السد، فقالوا: أيها الملك، اتق الله في نفسك وفيمن معك، فقال: أتوكل على الله الذي خلق هذا البحر، وهو جل وعز يُنجينا من دُرْورِهِ، ولا أحسب أني أمسح إيران شهر شرقه وغربه، وأعرف عدد جباله وأوديته إلا بعد ركوب هذا البحر وسلوكه إلى البر.

فهبت له السفن، وركب معه عدة من النساء حتى لجّوا^(٤) في البحر، ووافوا ذلك الذي يعرف بدهان شير، فدفعوا إلى دردور هائل، فبقوا فيه متحيرين لا يرون مناراً يجعلونه علماً لهم، ولا جبلاً يقيمونه أمانة لمنصرفهم.

فرجعوا على الملك باللوم والعيب، فقال: أخلصوا نياتكم لله جل وعز، وتضرعوا إليه. ففعلوا، ونذر أنوشروان: إن نجاه الله جل ذكره، ليصدقن بخراج سبع سنين.

قال: فرُفعت له جزيرة تعلوها الأمواج، وفوق الجزيرة أسد في عظم جبل يتشرب الماء مؤخره، وينحط من فيه إلى ذلك الدردور. فبيناهم كذلك إذ بعث الله جل جلاله سمكة عظيمة فظفرت^(٥)

(١) كذا في ك، وفي ل: «عليه».

(٢) ك: «للأبد».

(٣) في القاموس: «الدردور موضع وسط: البحر يجيش ماؤه».

(٤) ك: «ولجوا».

(٥) ك: «فظفرت».

حتى صارت في فم الأسد، فسكن الدُّرُور، ونفذت السفينة حتى وصل إلى ما أراد، ثم انصرف إلى دار مملكته.

حماد قال: حدثني أبي قال: قال الأعشى في مدحه إياس بن قبيصة، وذكره مسيره^(١) إلى الروم حيث لقيه كسرى أبرويز بساتيدما - وهو جبل يزعم أهل العلم أنه دون الجبال، وأنه لا بد من أن يراق عليه دم كل يوم. قال الواقدي: بل هو محيط بالدنيا، وزعموا أنه ليس في الأرض يوم إلا ويسفك عليه دم، وإنما سمى «ساتيدما» معناه «سيأتي دما» فكان من خير إياس بن قبيصة، أن كسرى أبرويز كان رجلاً سيئ الظن، وأنه بعث شهر براز إلى الروم في جيش عظيم، فأعطى من الظفر ما لم يعط أحد كان قبله، وهو الذي أصاب خزانين الملك التي كانت تسمى «كنج باد آورد»، أي الكنز الذي جاءت به الريح، وكانوا حملوها ليحرزوها، فضربتها الريح في الجزر؛ من خليج البحر.

فأخذها وبعث بها إلى كسرى، فحسده كسرى وحذره، وبعث إليه برجل تقدم إليه في قتله، وكان الذي أتاه رجل من أهل أذربيجان، فلما رأى جماله وهيبته، قال: لا يصلح قتل هذا في غير جرم ولا حق. فأخبره بما أمره به، فأرسل شهر براز إلى قيصر: إني أريد أن ألقاك، فالتقي، فقال له: إن هذا الخبيث قد أراد قتلي، وإني والله لأريد منه مثل الذي أراد مني، فاجعل لي ما أطمئن إليه، أعطيك مثل ذلك، ولئن قتلته لتجعلن لي ما أغلب عليه من الكور، وأجعل لك ألا أغزوكم أبداً، ولا أتناول شيئاً من أرضك، وأن أعطيك من بيوت أموال كسرى مثل ما تنفق في مسيرك هذا.

فأعطاه قيصر ما سأل، وسار قيصر في أربعين ألف مقاتل، وخلف شهر براز في أرض الروم، وقد أخذ منه العهد والمواثيق. ولم يعلم كسرى [بذلك]^(٢) حتى دنا منه قيصر، فلما بلغه ذلك علم أن شهر براز علم بما كان دبره من قتله، وكانت جنوده قد تفرقت في السواد وغيرها، وكان كسرى قد أبغضه أهل مملكته ومُلُوه وعُرف حاله عند الناس فاحتال بجبل الرجال، واستعمل المكر والدهاء، فبعث إلى قس عظيم من النصارى يثق بملك الروم بقوله، فقال: إني أكتب معك كتاباً لطيفاً في حريز، وأجعل في قناة إلى شهر براز، وجائزتك على ألف دينار.

وقد عرف كسرى أن القس يذهب بالكتاب إلى ملك الروم. فكتب إلى شهر براز: إني كتبت إليك، وقد دنا قيصر مني، وقد أحسن الله جل وعز إلى بصنيك^(٣) ونفوذ تدبيرك، وقد فرقت لهم الجيوش وأنا تاركه حتى يدنو مني، وأئب عليه وثبة أستأصل شأفته بها، وإذا كان ذلك اليوم، وهو يوم كذا وكذا، فأغري أنت على من قبلك منهم، فإنك تبدهم وتهلكهم، وأرجو أن تكون لملك قيصر مصطلياً.

(١) ك: «مسيره».

(٢) ك: «بصنيك».

(٣) من ك.

فخرج القسّ بالكتاب حتى لقي قيصر، وقد كانت صُورَتُ^(١) لقيصر أرض العرب والعراق، وصُورَت له النُهران بغير حين المدّ.

فلما انتهى إليه في المدّ وليس عليه جسْر، وقرأ الكتاب من يد القسّ^(٢)، قال: هذا هو الحقّ، ورجع منهزماً مفلولاً^(٣)، وأتبعه كسرى بإياس بن قبيصة الطائيّ، فأدركهم بساتيدما مرعوبين مفلولين^(٤) من غير لقاء ولا قتال، فقتلوا قتل الكلاب، ونجا قيصر في خواصّ من أصحابه، فمدح الأعشى إياس بن قبيصة، وكان قد أصابه مرض فقال^(٥):

ما تعيفُ اليومَ في الطيرِ الرّوحَ من غرابِ البين أوتيسٍ برّح^(٦)
جالساً في نَفَرٍ قد أيسوا^(٧) في محيلِ القِدِّ من صَحْبٍ قُزَح^(٨)

قال ابن الأعرابي: وسأله حماد عن قوله:

* ما تعيف اليوم في الطير الروح *

فقال: تطير الأعشى من مرض إياس إلى الزجر والقال، فقال لنفسه: «ما تعيف منه»، أى ما تكره منه وهو آخر أمره إلى السلامة.

فرجع قيصر وقد أتهم شهر براز، فلم يزل به حتى أمكنته الفرصة منه، فقتله وعامة رجاله وأفناهم^(٩).

* * *

قيل: ولما تشاغل عبد الملك بن مروان بمقاتلة مُصْعَب بن الزبير، اجتمع وجوه الروم إلى ملكهم وقالوا له: قد أمكنتك الفرصة من العرب، فقد تشاغل بعضهم ببعض، ووقع بأسهم بينهم، فالرأى أن تغزوهم في بلادهم، فإنك تذهبهم وتنال حاجتك منهم. فنهاهم عن ذلك، فأبوا عليه إلا أن يفعل، فلما رأى ذلك دعا بكلّين فأرّش بينهما، فاقتتلا قتالاً شديداً، ثم دعا بشعلب فخلّاه بينهما، فلما رأى الكلّبان الشعلب تركا ما كانا فيه، وأقبلّا على الشعلب حتى قتلاه، فقال ملك الروم: هكذا العرب تقتتل بينهما، فإذا رأونا وهم مجتمعون تركوا ذلك، وأقبلوا علينا، فعرفوا صدق^(١٠) قوله، ورجعوا عتياً كانوا عليه.

(١) ك: «صور».

(٢) ك: «فأخذ الكتاب من يد القس وقرأه».

(٣) ك: «مفلولاً».

(٤) ك: «مفلولين».

(٥) ديوانه ١٥٩، من قصيدة طويلة عدتها أحد وستون بيتاً.

(٦) الطير البارح: ما أتاك عن يمينك ويريد شمالك، والسانح خلاف ذلك.

(٧) ل: «أنسوا»، وما أثبتته من ك والدبوان.

(٨) ط: «في مقيلاً» وما أثبتته من الديوان. والمحيل: ما أتى عليه حول. وقزح: اسم ملك.

(٩) الخبر في شرح ديوان الأعشى ١٦٨.

(١٠) ل: «صدقة». وما أثبتته من ك.

وعن بكّار بن ما هويه، قال: قال كسرى إبرويز لمنجمه: كيف يكون أجلى؟ فقال له: تُقتل؛ فقال: والله لأقتلن قاتلي، فأمر بسم فخلط في أدوية؛ وكتب عليه: هذا دواء الجماع، من أخذ منه وُزِنَ كذا جامع كذا مرة، وصيره في خزانة الطب، فلما قتله ابنه شيرويه فتش خزانة أبيه، فمرّ بذلك السّم، فقال في نفسه: بهذا كان يقوى أبى على الجماع وعلى شيرين وغيرها، فأخذ منه، فمات من ساعته.

وعن الهيثم، عن ابن عيَّاش^(١) قال: كان الحجاج حسوداً لا تتم له صنعة حتى يُفسدها، فوجّه عمارة بن تميم اللخميّ إلى عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث فظفر به، وصنع به ما صنع، ورجع إلى الحجاج بالفتح، فلم ير منه ما أحبّ، وكره - منأفرته وكان عاقلاً رقيقاً - فجعل يترفق به ويُدّاريه ويقول: أنت أيها الأمير أشرف العرب، فمن شرفته شرف، ومن وضعته أتضع؛ وما ينكر لك ذلك، مع رفقك ومِنْكَ ومَشُورَتِكَ ورأيك، وما كان هذا كله إلا بصنع الله عز وجل وتدبيرك، وليس أحد أشكر لصنيعك مني، ومن ابن الأشعث! وما خطره!

حتى عزم الحجاج على المضيّ إلى عبد الملك. فأخرج عمارة معه، فوفد عليه وعمارة يومئذ على أهل فلسطين أمير، فلم يزل يُلطف^(٢) بالحجاج في مسيره ويُعظّمه حتى قدموا على عبد الملك، فلما قامت الخطباء بين يديه وأثنت على الحجاج، قام عمارة فقال: يا أمير المؤمنين، سل الحجاج عن طاعتي ومناصحتي وبلائي؛ فقال الحجاج: يا أمير المؤمنين، صنع وصنع، ومن بأسه ونجدته وعفاهه ومكيدته [كذا وكذا]^(٣). وهو أئمن الناس نقيّة، وأعلمهم بتدبير وسياسة؛ ولم يُبق غايّة في الثناء عليه. فقال عمارة: أرضيت يا أمير المؤمنين؟ قال: نعم، فرضى الله عنك. حتى قالها ثلاثاً؛ في كلّها يقول: قد رضيت:

فقال عمارة: فلا رضى الله عن الحجاج يا أمير المؤمنين، ولا حَفِظْه ولا عافاه، فهو الله السيء التدبير، الذي قد أفسد عليك أهل العراق، وألب عليك الناس، وما أتيت إلا من قلة عقله، وضعف رأيه، وقلة بصره بالسياسة، ولك والله أمثالها إن لم تعزله.

فقال الحجاج: مه يا عمارة! فقال: لا «مه» ولا كرامة يا أمير المؤمنين! كلّ امرأة له طالق، وكلّ مملوك له حر؛ أن سار تحت راية الحجاج أبداً. فقال عبد الملك: ما عندنا أوسع لك! فلما انصرف عمارة إلى منزله بعث إليه الحجاج وقال: أنا أعلم أنّه ما خرج هذا عنك^(٤)

(١) في ك، ل: «ابن عباس» والصواب ما أثبتته، انظر لسان الميزان ٣: ٣٢٢.

(٢) كذا في ل والمحسن والأضداد، وفي ل: «يتلطف».

(٣) من المحسن والأضداد.

(٤) ك والمحسن والأضداد: «منك».

إلا معتبة، ولك عندى العتبي^(١)، ولك ولك.. فأرسل إليه: وما كنت أظن أن عقلك على هذا، أرجع إليك بعد الذى كان من طعنى وقولى عند أمير المؤمنين! لا ولا كرامة لك^(٢)!

وعن الهيثم بن الحسن بن عُمارة قال: قَدِمَ شَيْخٌ مِنْ خُزَاعَةِ أَيَّامِ الْمُخْتَارِ، فَنَزَلَ عَلَى عَبْدِ الرَّحْمَنِ ابْنِ أَبِيزَى الْخُزَاعِيِّ، فَلَمَّا رَأَى مَا تَصْنَعُ شَيْعَةُ^(٣) الْمُخْتَارِ بِهِ مِنَ الْإِعْظَامِ لَهُ جَعَلَ يَقُولُ: يَا عِبَادَ اللَّهِ، أَبِالْمُخْتَارِ يَصْنَعُ^(٤) هَذَا! وَاللَّهِ لَقَدْ رَأَيْتُهُ تَبِيعَ^(٥) الْإِمَاءَ بِالْحِجَازِ. فَبَلَغَ ذَلِكَ الْمُخْتَارَ فَدَعَا بِهِ، فَقَالَ: مَا هَذَا الَّذِي يَبْلَغُنِي عَنْكَ؟ قَالَ: الْبَاطِلُ، فَأَمَرَ بِضَرْبِ عُنُقِهِ، فَقَالَ: لَا وَاللَّهِ، لَا تَقْدِرُ عَلَى ذَلِكَ، قَالَ: وَلَمْ؟ قَالَ: أَمَا دُونَ أَنْ أَنْظُرَ إِلَيْكَ وَقَدْ فَتَحْتَ مَدِينَةَ دِمَشْقَ وَنَقَضْتَهَا حَجْرًا حَجْرًا، وَقَتَلْتَ الْمُقَاتِلَةَ، وَسَبَّيْتَ الذَّرِّيَّةَ، ثُمَّ تَصَلَّيْنِي عَلَى شَجَرَةٍ عَلَى نَهْرٍ! وَاللَّهِ إِنِّي لِأَعْرِفُ الشَّجَرَةَ السَّاعَةَ، وَأَعْرِفُ شَاطِئَهُ ذَلِكَ النَّهْرِ. قَالَ: فَالْتَفَتَ الْمُخْتَارُ إِلَى أَصْحَابِهِ فَقَالَ لَهُمْ: أَمَا إِنَّ الرَّجُلَ قَدْ عَرَفَ الشَّجَرَةَ^(٦)، فَحُبِّسْ حَتَّى إِذَا كَانَ اللَّيْلُ بَعَثْ إِلَيْهِ فَقَالَ: يَا أَخَا خُزَاعَةَ، أَوْ مُزَاحٍ عِنْدَ الْقِتَالِ! فَقَالَ: أُنَشِدُكَ اللَّهَ أَنْ أَقْتُلَ ضَيَاعًا! قَالَ: وَمَا تَطْلُبُهَا هُنَا؟ قَالَ: أَرْبَعَةُ آلَافِ دِرْهَمٍ أَقْضِي بِهَا دِينِي. قَالَ: ادْفَعُوهَا إِلَيْهِ، وَإِيَّاكَ أَنْ تَصْبِيحَ بِالْكُوفَةِ، فَقَبِضْهَا وَخَرِجْ^(٧).

وعنه قال: كَانَ سُرَاقَةً الْبَارِقِيِّ مِنْ ظُرَفَاءِ أَهْلِ الْمَدِينَةِ، فَأَسْرَهُ رَجُلٌ مِنْ أَصْحَابِ الْمُخْتَارِ، فَأَتَى بِهِ الْمُخْتَارَ، وَقَالَ أَسْرَتَ هَذَا! فَقَالَ: كَذَبْتَ وَاللَّهِ مَا أَسْرَنِي هَذَا، إِنَّمَا أَسْرَنِي رَجُلٌ عَلَيْهِ ثِيَابٌ بَيْضٌ عَلَى فَرَسٍ أَبْلَقٍ. فَقَالَ الْمُخْتَارُ: أَمَا إِنَّ الرَّجُلَ قَدْ عَايَنَ - يَعْنِي الْمَلَانِكَةَ - خَلُّوا سَبِيلَهُ، فَلَمَّا أَفْلَتَ أَنْشَأَ يَقُولُ:

أَلَا أَبْلُغُ أَبَا إِسْحَاقَ أَنِّي رَأَيْتُ الدُّهْمَ بُلُقًا مُصَنَّاتٍ^(٨)
أَرَى عَيْنِي مَا لَمْ تَبْصُرَاهُ كِلَانَا مُوَلَّعٌ بِالْتَّرَهَاتِ^(٩)
كَفَرْتُ بِدِينِكُمْ وَجَعَلْتُ نَذْرًا عَلَى قِتَالِكُمْ حَتَّى الْمَعَاتِ^(١٠)

(١) ك: ل: «العتبي»، وما أثبتته من المحاسن والأضداد، والعتبي: الرضا.

(٢) الخبر في المحاسن والأضداد ١٣٢-١٣٤.

(٣) المحاسن والأضداد: «سوقة المختار».

(٤) كذا في المحاسن والأضداد وفي ك: ل: نصنع.

(٥) المحاسن والأضداد: «يتبع».

(٦) ك: «السجن».

(٧) الخبر في المحاسن والأضداد ١٢٧، ١٢٨.

(٨) ديوانه ٧٨. والمصمت: الذي لا يخالط لوجه لون آخر.

(٩) بعده في الديوان:

إِذَا قَالُوا أَقُولُ هُمْ كَذَبْتُمْ وَإِنْ خَرَجُوا لَبَسْتُ هُمْ أَدَاتِي

(١٠) الخبر في ديوان سراقه ٧٥ - ٧٩، مع تصرف: وهو أيضًا في المحاسن والأضداد ١٢٧، ١٢٨.

وعنه قال: خرج الأخوص بن جعفر المخزومي يتغذى في دير اللُّج، وذلك في يوم شديد البرد، ومعه حمزة بن بيض وسراقة البارقي فلما كانا على ظهر الكوفة وعليه الوبر والخز وعليهما أطمار، قال حمزة لسراقة: أين يُذهب بنا في هذا البرد، ونحن في أطمارنا! قال سراقة: أنا أكفيك، فبينما هو يسير إذ لقيهم راكب مقبل؛ فحرَّك سراقة دابَّته نحوه، وواقفه ساعة، ولحق بالأخوص، فقال: ما خبرك به الراكب؟ قال: زعم أن خوارج خرجت بالقُطُطانة. قال: بعيد! قال: إن الخوارج تسير في ليلة ثلاثين فرسخًا وأكثر - وكان الأخوص أحد الجُبَّاء - فثنى رأس دابته، وقال: ردوا طعامنا؛ نتغذى في المنزل، فلما حاذى منزله قال لأصحابه: ادخلوا، ومضى إلى خالد بن عبد الله القسري، فقال: قد خرجت خارجة بالقُطُطانة، فنادى خالد في العسكر فجمعهم، ووجه خيلًا تركض نحو دير اللُّج لتعرف الخبر، فانصرفوا وأعلموه أنه لا أصل للخبر، فقال للأخوص: مَنْ أعلمك هذا؟ قال: سراقة، قال: وأين هو؟ قال: في منزلي، فأرسل إليه مَنْ أتاه به، فقال: أنت أخبرته عن الخارجة؟ قال: ما فعلت أصلح الله الأمير؟ فقال الأخوص: أو تكذِّبني بين يدي الأمير؟ قال خالد: ويحك! أصدقني، قال: نعم أخرجنا في هذا البرد، وقد ظاهر الخز والوبر، ونحن في أطمارنا هذه، فأحببت أن أردّه، فقال له خالد: ويحك! وهذا ممَّا يتلاعب به! وكان سُراقة ظريفًا شاعرًا، وهو الذي يقول:

قالوا سُراقة عَيْنٌ فقلتُ لهم الله يعلم أني غيرُ عَيْنٍ
فإن ظننتم بي الشيء الذي زعموا فقرُّبوني من بيت ابن يامين^(١)

وذكروا أن شبيب بن يزيد الخارجي؛ مرَّ بـغلام مستنقع في ماء الفرات، فقال له: يا غلام، اخرج إلى أسألك، ففرقه الغلام، فقال: إني أخاف، أفأمن أنا إن خرجت حتى ألبس ثيابي؟ قال: نعم؛ فخرج وقال والله لا ألبسها اليوم! فضحك شبيب وقال: خدعني وربُّ الكعبة! ووَكَّل به رجلًا من أصحابه يحفظه ألا يصيبه أحد من أصحابه بـكروه^(٢).

* * *

قال: وكان رجل من الخوارج قال في قصيدة له:
ومنا يزيدُ والبطين وقعنَبُ ومنا أميرُ المؤمنين شبيبُ
[الطويل]

فسار البيت حتى سمعه عبد الملك بن مروان، فأمر بطلب قائله، فأُتِيَ به، فلما وقف بين يديه قال: أنت القائل.

* ومنا أميرُ المؤمنين شبيب *

قال: لم أقل هكذا يا أمير المؤمنين، قال: فكيف قلت؟ قال: قلت:

* ومنا أميرُ المؤمنين شبيب *

(١) الخبر في المعاسن والأضداد ١٢٩، ١٣٠.

(٢) الخبر في المعاسن والأضداد ١٣٠.

فضحك عبد الملك وأمر بتخيلة سبيله، فتخلص بحيلته، وفطنته لإزالة الإعراب عن الرفع إلى النصب^(١).

* * *

وزعموا أن عمرو بن معدى كرب الزبيدي، هجم في بعض غاراته على شابة جميلة منفردة، فأخذها، فلما أمعن بها بكت، فقال: ما يُبكك؟ قالت: أبكى لفراق بنات عمي؛ كلهن مثلي في الجمال؛ وأفضل مني. خرجت معهن فانقطعنا عن الحي، قال: وأين هن؟ قالت: خلف ذلك الجبل، وددت إذ أخذتني أخذتهن [معى]^(٢). فأخذ^(٣) إلى الموضع الذي وصفته^(٤) فما شعر بشيء حتى هجم على فارس شاك^(٥) في السلاح، فعرض عليه المصارعة، فصرعه الفارس، ثم عرض عليه ضرباً من المناوشة^(٦)، فغلبه الفارس في كلها، فسأله عمرو عن اسمه فإذا هو ربيعة ابن مكرم^(٧)، فاستنقذ الجارية [منه]^(٨).

* * *

وعن عطاء: أن^(٩) مخارق بن عفان، ومعن بن زائدة، لقياً رجلاً ببلاد الشرك، ومعه جارية لم يريا مثلها شيباً وجهالاً، فصاحا به؛ ليخلى عنها. ومعه قوس فرمى بها، وهابا الإقدام عليه، ثم عاد ليرمى؛ فانقطع وتره وسلم الجارية، وأسند^(١٠) في جبل كان قريباً منه، فابتدرا الجارية وفي أذنها قرط فيه دُرّة، فانتزع^(١١) بعضهما من أذنها. فقالت: ما قدر هذا؛ لو رأيتما دُرّتين معه في قلنسوته، وفي القلنسوة وتر قد أعدّه؛ فنسيه من الدهش. فلما سمع قول المرأة ذكر الوتر، فأخرجه وعقده في قوسه، فوليا؛ ليست لهما هبة إلا النجاة، وخلياً عن الجارية^(١٢).

* * *

قيل: واستودع رجل رجلاً مالا ثم طالبه به؛ فجحده، فخاصمه إلى إياس بن معاوية القاضي، وقال: دفعت إليه مالا في مكان كذا وكذا، قال: فأنى شيء كان في ذلك الموضع؟ قال: شجرة، قال: فانطلق إلى ذلك الموضع وانظر إلى تلك الشجرة، فلعل الله أن يوضح لك هناك ما تبين به حقل.

(١) الخبر في المحاسن والأضداد ١٣٠.

(٢) من المحاسن والأضداد.

(٣-٤) المحاسن والأضداد: «فامض إلى الموضع الذي وصفته لك؛ فمضى إلى هناك».

(٤) يقال رجل شاكى السلاح؛ إذا كان ذا شوكة، وفي ط بتشديد الكاف؛ وهو خطأ.

(٥) المناوشة: المناولة في القتال.

(٦) زاد في المحاسن والأضداد: «الكتاني».

(٧) تكملة من ك؛ والخبر في المحاسن والأضداد ١٣٠ - ١٣١.

(٨) ل: «بن» تصحيف.

(٩) كذا في المحاسن والأضداد، وفي ل: «واستد» تصحيف، وأسند في الجبل: رقى.

(١٠) المحاسن والأضداد: «فانتزعاه من أذنها».

(١١) الخبر في المحاسن والأضداد ١٣١.

أو لعلك دفنت مالك عند الشجرة فنسيت فتذكر إذا رأيت الشجرة.
فمضى، وقال إياس للمطلوب منه: اجلس حتى يرجع صاحبك، فجلس وإياس يقضى وينظر إليه بين كل ساعة، ثم قال: ترى صاحبك بلغ موضع الشجرة؟ قال: لا، فقال: يا عدو الله، أنت الخائن!

قال: أقلتني أقالك الله، فأمر بحفظه حتى جاء خصمه^(١)، فقال له: خذ [منه]^(٢) بحقك فقد أقر.

قال: واستودع رجل رجلاً كيساً فيه دنانير، فغاب، وطالت غيبته، فسق المستودع الكيس من أسفله، وأخذ الدنانير، وجعل مكانها دراهم وخيطة والخاتم على حاله، فجاء الرجل بعد ست عشرة سنة فقال: مالي! وطالب به، فأعطاه الكيس بخاتمه، فنظر إليه وإذا ماله دراهم، فأحضره مجلس إياس، فقال إياس للطالب: ماذا تقول؟ قال: أعطيته كيساً فيه دنانير، فقال: منذ كم؟ قال: منذ ست عشرة سنة، قال: فضا الخاتم ففضاه، فقال: انثرا ما فيه، فإذا هي دراهم بعضها من ضرب عشر سنين وأكثر وأقل، فأقر بالدنانير، وألزمه إياها حتى خرج منها.

قال: وأودع^(٣) رجل رجلاً من أمناء إياس مالاً، وحب، فلما رجع طالبه فجحدته، فأق إياساً فأخبره، فقال: أعلم أنك أخبرت غیری بذلك؟ قال: لا، قال: فهل علم أنك أعلمتني^(٤)؟ قال: لا؛ قال: أفنازعته^(٥) بحضرة أحد؟ قال: لا؛ قال: فانصرف واكتب أمرك ثم عد إلى. ودعا إياس أمينه ذلك فقال: قد حضر مال كثير، وقد رأيت أن أودعك إياه عندك، فارتد له موضعاً وأتني بمن يجعله، معك. فمضى الأمين، وعاد الرجل إلى إياس؛ فقال له: انطلق إلى صاحبك فطالبه بمالك، فإن أعطاك، وإلا فقل إنك تعلمني، فأتاه فقال له: أعطني مالي وإلا أتيت القاضي فأعلمته، فدفع إليه ماله، وصار إلى إياس، فقال: قد رد مالي علي، وجاء الأمين إلى إياس لموعده، فانتهره وقال: اخرج عني يا خائن.

وأراد معاوية أن يوجه ابنه يزيد إلى غزو الصائفة^(٦)، وكره يزيد ذلك، وأنشأ يقول:

تجنّي لا تزال تعدّ ذنباً لتقطع وصل حيلك عن جبال
فيوشك أن يريحك من أذاق^(٧) نزولي في المهالك وارتحالي

وخرج، وخرج الناس معه، وفيمن خرج أبو أيوب الأنصاري. فلما قرب من قسطنطينية اشتكى أبو أيوب، فأتاه يزيد عائداً، فقال له: ما حاجتك؟ قال: أما دنياكم فلا حاجة لي فيها، ولكن

(٣) ك: «واستودع».

(٤) ك: «عرفتني».

(١) ساقط من ك.

(٢) تكلمة من ك.

(٥) ل: «فنازعت».

(٦) الصائفة: الغزوة في الصيف؛ وبها سميت غزوة الروم؛ لأنهم كانوا يغزون صيفاً لمكان البرد والثلج.

(٧) ط: «أذاني» تصحيف.

سمعتُ رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «يُدفن بجنب قسطنطينية رجلٌ صالح»، وقد رجوتُ أن أكونه، فقدّمني ما قدرت عليه، فمات. فلما فرغ من جهازه ووضَعَ على سريره قدّم الكتائب بين يديه، فنظر قيصر، ورأى أمراً عجيّباً، وشيئاً يُحمَل، والناس بالسلاح تحته، فأرسل إليه: ما هذا الذي أرى^(١)؟ قال يزيد: هذا صاحب نبينا صلى الله عليه وسلم، أوصى أن تدفنه إلى جنب مدينتكم، ونحن ننفذ وصيته أو نموت دونه. فأرسل إليه: العجبُ من الناس وما يذكرونه من دهاء أبيك، وهو يبعثك في هذا البعث! تدفن صاحبَ نبيك بجنب مدينتي، فإذا وليت عنه نبشته فطرحته للكلاب! فأرسل إليه يزيد: إني ما أردت أن أجته حتى أودع مسامعك كلامي؛ وكفرت بالذي أكرمت له هذا الميت، لئن تعرضت له لا تركت في أرض العرب نصراً إلا سفتك دمه واستصفيت ماله، وسيئتُ حرمة.

فأرسل إليه قيصر: كان أبوك أعرف بك مني، وإني أحلف بحق المسيح عليه السلام: ألا يحرسه سنةٌ أحدٌ غيري.

* * *

وعن بعض مشايخ المدينة: قال: كانت عند عبد الله بن جعفر بن أبي طالب رضوان الله عليها جاريةٌ مغنية، يقال لها عُمارة، فلما وفد عبدُ الله على معاوية خرج بها معه، فزاره يزيد ذات يوم وأقام عنده، فأخرجها إليه، فلما نظر إليها وسمع غنائها وقعت في نفسه، فأخذها عليها ما لم يملك نفسه، وجعل يمنعه من أن يبوَحَ به مكان أبيه؛ مع يأسه من الظفر بها. فلم يزل يُكاثمها إلى أن مات معاوية، وأفضى إليه الأمر، وتقلد الخلافة يزيد، فاستشار بعض من يثق به في أمرها، فقال: إن أمر عبد الله لا يُرام، وأنت لا تستجيز إكراهه، ولا يبيعها بشيء أبداً، وليس يُغنى في هذا الأمر إلا الحيلة، قال: اطلب لي رجلاً عاقلاً من أهل العراق، ظريفاً أديباً له معرفة ودراية، فطلبوه فأتوه، فلما دخل عليه استنطقه، فرأى بياناً وحلاوةً وفقهاً، فقال له: إني دعوتك لأمر، إن ظفرت به فهو حظوتك آخر الدهر، ويد أكافئك عليها، ثم أخبره بأمره.

فقال: يا أمير المؤمنين، إن عبد الله بن جعفر ليس يرام^(٢) ما قبله إلا بالخديعة، وإن يقدر على ما سألت رجل فأرجو أن أكونه، والقوة بالله، فأعني يا أمير المؤمنين بالمال، قال: خذ ما أحببت. فأخذ واشترى من طَرف الشام وثياب مصر ومتاعها للتجارة، ومن الرقيق والدواب وغير ذلك حاجته، وشخص إلى المدينة، فأناخ بعرة عبد الله بن جعفر، واكترى منزلاً إلى جانبه، ثم توسل إليه، وقال: أنا رجلٌ من أهل العراق، وقدمت بتجارة، فأحببت أن أكون في جوارك وكنفك إلى أن أبيع ما جئت به.

فبعث عبد الله إلى قهارمته وقال: أكرموا جارنا، وأوسعوا عليه المنزل، فلما اطمأن العراقي

(١) ل: «نرى».

(٢) كذا في ك، وفي ل: «لا يرام».

وسلم عليه أياماً، وعرفه نفسه، هيأ له بغلة فارغة، وثياباً من ثياب العراق وأطافاً، وبعث بها إليه، وكتب رقعة يقول فيها: يا سيدي، أنا رجل تاجر، ونعمة الله عليّ سابقة، وعندى أحمال^(١)، وقد بعثت إليك بشيء من اللطف وهو كذا، ومن الثياب والعطر، وبعثت إليك^(٢) بغلة خفيفة العنان، وطينة الظهر، فاتخذها لرحلك، وأنا أسألك بقرابتك من رسول الله ﷺ إلا قبلت هديتي، ولم توحشني بردها، فإني أدين الله عز وجل بحبك وحب أهل بيتك، وإن أفضل ما في سفري هذا أن أستفيد الأتس بك، والشرف^(٣) بمواصلتك.

فأمر عبد الله بقبض هديته، وخرج إلى الصلاة، فلما رجع مرّ بالعراقي في منزله، فقام إليه، وقبل يده، وسلم عليه، واستكثر منه، فرأى أدباً وظرفاً وحلاوة وفصاحة، فأعجب به وسرّ بنزوله عليه. فجعل العراقي يبعث كل يوم^(٤) بلطف إلى عبد الله وبطرف. فقال عبد الله: جزى الله ضيفنا هذا خيراً، فقد ملأنا شكرًا، وأعيانا عن مجازاته^(٥).

فإنها لذلك، إذ دعاه عبد الله ودعا بعمارة وجواريه، فلما تعشياً وطاب لها^(٦)، وسمع غناء عمارة تعجب وجعل يزيد في عجبه، إذ رأى ذلك يسرُّ عبد الله إلى أن قال له: رأيت مثل عمارة؟ قال: لا والله يا سيدي، ما رأيت مثلاً، وما تصلح^(٧) إلا لك، وما ظننت أنه يكون في الدنيا مثل هذه: حسن وجهٍ وحذق عمل! قال: كم تساوى عندك؟ قال: ما لها ثمن إلا الخلافة. قال: تقول هذا لما ترى من رأيي فيها، ولتجلب سروري! قال: والله يا سيدي إني لأحب سرورك. وما قلت لك إلا الجّد. وبعد، فإني رجل تاجر، أنجم الدرهم إلى الدرهم طلباً للريح، ولو أعطيتها بعشرة آلاف دينار لأخذتها. قال عبد الله: بعشرة آلاف دينار! قال: نعم - ولم يكن في ذلك الزمان جارية بعشرة آلاف دينار - فقال عبد الله كالمزاح: أنا أبيعكها بعشرة آلاف دينار. قال: قد أخذتها، قال: هي لك، قال: قد وجب البيع، وانصرف العراقي. فلما أصبح لم يشعر عبد الله إلا وبالمال قد وافاه، فقال عبد الله: بعث العراقي بالمال؟ قالوا: نعم، بعشرة آلاف دينار وقال: هذه ثمن عمارة. فردّها إليه وقال: إنما كنت أمزح معك، وما أعلمك أن مثلي يبيع مثلها! قال: جعلت فداك! إن الجّد والهزل في البيع سواء، قال له عبد الله: ويحك! لا أعلم موضع جارية تساوى ما بذلت، ولو كنت بائعها من أحد لآثرتك، ولكنني كنت أمازحك، وما أبيعها بملك الدنيا، لحرمها بي وموقعها من قلبي. قال له العراقي: فإن كنت مازحاً فإني كنت جاداً، وما أطلعت على ما في نفسك، وقد ملكت الجارية، وبعثت بالثمن، وليست تحيل لك وما من أخذها بدّ.

فممنعه إياها، فخرج العراقي وهو يقول: أستحلفك في مجلس أمير المؤمنين فلما رأى عبد الله الجّد منه، قال بشس الضيف! ما طرقتنا طارق، ولا نزل بنا ضيف أعظم بلية علينا منك! تحلفني فيقول

(١) ل «احتمال». ك: «اجتماع» تصحيف. (٥) ل: «وأعانا على مجازاته».

(٢) من ك. (٦) كذا في ك، وفي ل: «طاب لها».

(٣) كذا في ل، وفي ك: «وأشرف». (٧) ك: «ولا تصلح».

(٤) ك: «في كل يوم».

الناس: اضطهدّه وقهره وأجأه إلى أن استخلفه! أما والله لتعلمن أني سأبلى في هذا الأمر بالصبر وحسن العزائم وجميل العزاء.

ثم أمر قهرمانه بقبض المال، وتجهيز الجارية بما يشبهها من الثياب والخدم والطيب والمركب فجهزت بنحو من ثلاث آلاف دينار، ثم سلمها إلى قهرمانه وقال: أوصِل الجارية إليه مع ما معها، وقل: هذا لك، ولك عندنا عوض مما ألفتنا به.

فقبض العراقي الجارية وخرج، فلما برز من المدينة قال لها: يا عمارة، إنني والله ما ملكتك قط ولا أنت لي، ولا مثلي يشتري جارية بعشرة آلاف دينار، وما كنت لأقدم على عبد الله بن جعفر فأسلبه أحب الناس إليه لنفسى، ولكني دسيس من قبل أمير المؤمنين يزيد، وأنت له، وفي طلبك بعثني، فاستترى مني، فإن دخلني الشيطان في أمرك، أو تافت نفسي إليك فامتنعي. ثم مضى بها حتى ورد دمشق، فتلقاها الناس يحملون جنازة يزيد، وقد استخلف ابنه معاوية.

فأقام الرجل أياماً ثم تلطّف للدخول عليه، فشرح له القصة، فقال: هي لك. فارتحل العراقي، وقال للجارية: إنني قلت لك ما قلت حين أخرجتك من المدينة؛ لأنني لم أملكك، وقد صرت الآن لي، وأنا أشهدك أني قد وهبتك لعبد الله بن جعفر.

فخرج بها حتى قدم المدينة، فنزل قريباً من عبد الله، فدخل عليه بعض خدمه فقال: هذا العراقي ضيفك الصانع بنا ما صنع - لا حيّاه الله - قد نزل، فقال: مه! أنزلوا الرجل وأكرموا منّواه، فأرسل إلى عبد الله: إن أذنت جعلت فداك لي في الدخول عليك دخلة خفيفة أشافهك فيها بحاجتي وأخرج! فأذن له، فلما دخل خبره بالقصة، وحلف له بالمرجات^(١). من الأيمان أنه ما رأى لها وجهاً إلّا عنده، وها هي ذه. فأدخلها الدار، فلما رآها أهل الدار والحشم تصيحوا، ونادوا: عمارة! عمارة! فلما رأت عبد الله خرت مغشياً عليها، وجعل عبد الله يمسح وجهها بكفه ويقول: يا حبيبتي، أحلم هذا؟ فقال له العراقي: بل ردّها الله إليك بوفائك وكرمك، فقال عبد الله: قد علم الله كيف كان الأمر! فالحمد لله على كلّ حال، ثم أمر ببيع عير له بثلاثة عشر ألف دينار، وأمر بها للعراقي، فانصرف إلى العراق وأقر العرض^(٢) والمال.

أبو محارب، قال، قال معاوية بن أبي سفيان: إن عمرو بن العاص قد احتجّن عنا خراج مصر. فعزّله واستعمل أبا الأعوار السلمي، فبلغ عمراً الخبر، فدعا وردان موله وقال له: ويحك! عزّلتني أمير المؤمنين، قال: فمن استعمل؟ قال: أبا الأعور، قال: دعني وإياه أصنع له طعاماً، ولا تنظر في كتابه حتى يأكل، قال: نعم؛ فلما قديم عليه أخرج الكتاب بتسليم العمل إليه، فقال عمرو: ما نضع بالكتاب! لو جئتنا برسالة لقبلنا ذلك منك^(٣). فقال وردان: ضع الكتاب وكل، فقال أبو الأعور لعمرو: انظر في الكتاب. قال: ما أنا بناظر فيه حتى تأكل، فوضعه إلى جانبه، وجعل يأكل، فاستدار

(١) ك، ل: «المرجات».

(٣) ساقطة من ك.

(٢) ل: «العوض».

وردان فأخذه^(١)، فلما فرغ أبو الأعور من غذائه، طلب الكتاب فلم يجده، فقال: أين كتابي؟ فقال له عمرو: أوليس جئتُنا زائراً لنحسن إليك؟ قال: بل استعملني أمير المؤمنين وعزّلك، قال: مهلاً، لا يظهرون هذا منك، فإنه قبيح ونحن نصلُّك ونحسن إليك. فرضى بالصُّلة، وبلغ معاوية الخبر، فاستضحك وتعجب من فعله، وأقرَّ عمرًا على عمله.

* * *

وعن الشعبي قال: كتب المغيرة بنُ شعبة إلى معاوية، وكان خاف العزل: قد كبرتُ سنِّي، ورقَّ عَظْمي، واقترب أجلي، وسَفَهَنِي^(٢) سفهاء قريش، وأمير المؤمنين أُولَى بَعْمَلِهِ؛ فكتب إليه معاوية: أَمَّا ما ذَكَرْتَ من كِبَرِ سِنِّكَ فَأَنْتَ أَكَلْتَ عُمُرَكَ. وأما اقتراب أجلك، فلو أستطيع دفع الموت عن أحد دفعته عن نفسي وعن آل أبي سفيان، وما ذكرت من سفهاء قريش، فحلماؤها أنزلتك هذه المنزلة. أَمَّا العمل، فاصبر رَوِيْدًا يدرك الهيجا حَمَل. فاستأذنه في القدوم عليه، فأذن له، فوافاه، فقال له معاوية: يا مغيرة، كَبُرَتْ سِنِّكَ، واقترب أجلك، ولم يبق منك شيء، وسأستبدل بك.

فانصرف فرأى أصحابه الكأبة في وجهه، فقالوا: مالك؟ قال: قال لي: كَيْتَ وَكَيْتَ، قالوا له: فما تريد أن تصنع؟ قال: ستعلمون، قال: فأقى معاوية فقال له: يا أمير المؤمنين، إن الإنسان يَغْدُو وَيَرُوح، ولست في زمن^(٣) أبي بكر ولا عمر، فلو أنك نَصَبْتَ لنا إنساناً نصير إليه بعدك كان الرأي؛ على أني قد كنتُ دعوتُ أهلَ العراقِ إلى يزيد. قال: يا أبا محمد، انصرف إلى عملك، وأحكِم هذا الأمرَ لابن أخيك، قال: فأقبل على البريد يركض، وقال: قد والله وضعت رجله في ركابٍ طويلٍ الركض قال: فذاك هو الذي بعث معاوية على أخذ البيعة ليزيد.

(١) ل: فاتخذه.

(٢) ك: «سفهنى».

(٣) ك: «زمان».

مساوئ العي وضعف العقل

قال ثُمَامَةُ صاحب الكلام: كان المأمون قد بَلَغَ معاوية، وأن يكتب بذلك كتابًا في الطعن عليه، قال: فَفَتَاهُ^(١) عن ذلك يحيى بن أَكْثَمَ وقال: يا أمير المؤمنين، العامة لا تحتل هذا، ولا سيما أهل خُرَاسان، ولا تأمن أن يكون لهم نَفَرَةٌ وَنَبَوَةٌ لا تُسْتَقَال، ولا يُدْرَى ما يكون عاقبتها، والرأى أن تَدْعَ النَّاسَ على ما هم عليه، ولا تُظْهِرْ لهم أَنَّكَ تميل إلى فِرْقَةٍ من الفرق، فإن ذلك أصلح في السياسة، وآمن في العاقبة، وأَجْرَى في التدبير. فركن إلى قوله.

فلما دخلت عليه قال: يا ثُمَامَةُ، قد علمت ما كنّا دبرناه في أمر معاوية؛ وقد عارضنا رأى هو أصلح في تدبير المملكة، وأبقى ذِكْرًا في العامة. ثم أخبرني أن يحيى بن أَكْثَمَ حذره، وأخبره بنفور العامة عن مثل هذا الرأى، فقلت: يا أمير المؤمنين، والعامة عندك في هذا الموضع الذى وضعها فيه يحيى! والله لو بعثت إليها إنسانًا على عاتقة سوادٍ ومعه عَصَا، لساق إليك منها عشرة آلاف؛ والله يا أمير المؤمنين، ما رضى الله جلَّ وعزَّ أن سَوَّاهَا بالأنعام حت جعلها أَضَلَّ سَبِيلًا. فقال تبارك وتعالى: ﴿أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾^(٢). والله لقد مررتُ يا أمير المؤمنين منذ أيام في شارع الخُلْدِ وأنا أريد الدار، فإذا إنسانٌ قد بَسَطَ كِسَاءَهُ، وألقى عليه أدوية، وهو قائم ينادى: هذا الدواء للبياض في العين والغشاوة والظلمة وضعف البصر، وإن إحدى عينيه لمطموسة، والأخرى مؤلمة وقد تألَّبوها عليه، واحتفلوا إليه، فنزلت عن دابتي ودخلت بين تلك الجماعة، فقلت: يا هذا، أرى عَيْنَيْكَ أَحْوَجَ الأَعْيُنِ إلى العلاج، وأنت تصف هذا الدواء وتخبر أنه شفاء، فما بالك يا هذا لا تستعمله! قال: أنا في هذا الموضع منذ عشرين سنة ما رأيت شيخًا قطُّ أَجْهَلَ منك ولا أَحَقَّ! قلت: وكيف ذاك؟ قال: يا جاهل، أتدرى أين اشتكت عيني؟ قلت: لا، قال: بمصر؛ فأقبل على الجماعة فقالت: صدق، والله! أنت جاهل. وهُمُوا بى، فقلت: والله ما علمت أن عينه اشتكت بمصر. فتخلَّصت منهم بهذه الحجة. قال: فضحك المأمون وقال: ما لقيت من الله جلَّ ذكره من سوء الثَّنَاءِ^(٣)، وقُبِحَ الذكر أكثر. قلت: أجل.

وقيل: إنّه كان رجلٌ من المعتزلة، وكان له جارٌ يرى رأى الخوارج، وكان كثير الصلاة والصيام، حَسَنَ العبادة، فقال المعتزلى لرجلين من أصحابه: مُرَّا بنا إلى هذا الرجل، فنكلمه^(٤)، لعلَّ الله جلَّ وعزَّ يُنْقِذَهُ من الهلكة بنا، ومَهْدِيَهُ من الضلالة. فأتوه وكلموه، فأصغى إلى كلامهم، فلما سكتوا

(٣) يقال: أنى عليه؛ إذ قال خيرا أو شرا.

(٤) ك: «لنكلمه».

(١) فتاه: منعه وكفّه، وفي ك: «فتناه».

(٢) سورة الفرقان ٤٤.

انتقل^(١) وقام معه القوم حتى وقف على باب المسجد، فرفع صوته بالقراءة، واجتمع إليه الناس^(٢)، وقعد الرجل وصاحبه، فقرأ ساعة حتى بكى الناس، ثم وعظ فأحسن، ثم ذكر الحجاج، فقال: أحرقت المصاحف، وهدمت الكعبة، وفعلت وفعلت، فالعنوه لعنة الله! فلعنّه الناس، ورفعوا أصواتهم. ثم قال: يا قوم، وما علينا من ذنوب الحجاج ومن أن يغفر الله عز وجلّ له ولنا معه، فإننا كلنا مذنبون! لقد كان الحجاج غيورا على حرم المسلمين، تاركا للغدر، ضابطا للسبيل^(٣)، عفيفا عن المال، لم يتخذ ضيعة، ولم يكن له مال، فما علينا أن نترحم عليه، فإن الله عز وجلّ رحيم يحبّ الراحمين! ثم رفع يده، ودعا بالمغفرة للحجاج، ورفع القوم أيديهم، وارتفعت الأصوات بالاستغفار مليا.

قال الرجل المعتزل وهو يلاحظني، فلما فرغ وانصرف، ضرب بيده إلى منكبي، وقال: هل رأيت مثل هؤلاء القوم! لعنوه واستغفروا له في ساعة واحدة! أتتهى عن دماء أمثال هؤلاء! والله لأجاهدّهم مع كل من أعانني عليهم.

(١) ك: «انتقل».

(٢) ك: «خلق كثير».

(٣) ك: «السبيل».

محاسن التيقظ

قيل: كان أردشير من أشد خلق^(١) الله فصحاء وبحثاً عن سرائر خاصته وعامته، وإذكاءً للعيون عليهم وعلى الرعية. وكان يقول: إنما سُمي الملك راعياً لِيَفْخَصَ عن دفائن رعيته، ومتى غفل الملك عن تعرفه ذلك؛ فليس له من رسم الراعي إلا اسمه، ومن الملك إلا ذكره.

ويقال: إنه كان يُصبح فيعلم كل شيء جرى^(٢) في دار مملكته من خير وشر، ويسى فيعلم كل شيء أصبحوا عليه، فكان متى شاء قال لأرفعهم وأضعهم: كان عندك في هذه الليلة كيت وكيت. ثم يحدثه بكل ما كان فيه إلى أن أصبح، وكان بعضهم يقول: يأتيه ملك من السماء فيخبره، وما كان ذلك إلا لتيقظه وكثرة تعهده لأمر رعيته.

ويقال: إن الأمم كلها: أولها وآخرها، قديمها وحديثها؛ لم تخف ملوكها خوفها أردشير من ملوك العجم وعمر بن الخطاب رضي الله عنه من ملوك العرب والإسلام؛ فإن عمر رضي الله عنه كان علمه بمن نأى من عماله ورعيته كعلمه بمن بات معه على مهاد، فلم يكن له في قطر من الأقطار؛ ولا ناحية من النواحي أمير ولا عامل إلا وله عليه عين لا تفارقه^(٣)، فكانت أخبار النواحي كلها عنده كل صباح ومساء، حتى إن العامل كان يتوهم على أقرب الخلق إليه وأخصهم به، فساس الرعية سياسة أردشير في الفحص عنها وعن أسرارها، ثم اقتفى معاوية فعله، وطلب أثره. فانتظم له أمره، وطالت في الملك مدته.

وكذا كان زياد بن أبي سفيان، يحتذى فعل معاوية كاحتذاء معاوية فعل عمر رحمه الله في تعرف أمور رعيته ومملكته، وفيما يحكى عنه أن رجلاً كلمه في حاجة له، فتعرف إليه وهو يظن أنه لا يعرفه، فقال: أصلح الله الأمير! أنا فلان ابن فلان. فتبسّم زياد، وقال: أنت تعرف إلى وأنا أعرف منك بنفسك! والله إنّي لأعرفك وأعرف إباك وأمك وجدك وجدتك، وأعرف هذا البرد الذي عليك، وهو لفلان. فبهت الرجل وأرعِد؛ حتى كاد يُغشى عليه.

وعلى هذا كان عبد الملك بن مروان، والحجاج. ولم يكن بعد هؤلاء الثلاثة أحد في مثل هذه السياسة، حتى ملك المنصور، فكان أكبر الأمور عنده معرفة الرجال حتى عرف العدو من الولي، والموادع والمسال من المشايخ، فساس الرعية على ذلك، ثم درست هذه السياسة حتى ملك الرشيد، فكان أشد الملوك بحثاً عن أسرار رعيته، وأكثرهم بها عناية، وأحزمهم فيها أمراً.

(٣) ك: «يفارقه».

(١) ك: «الناس».

(٢) ك: «يجرى».

وعلى هذا كان المؤمنون في أيامه^(١)، والدليل على أمر المؤمن رسالته إلى إسحاق بن إبراهيم في الفقهاء وأصحاب الحديث وهو بالشام؛ خَبَر فيها عن عيب واحد، وعن نحلته وعن أموره التي خَفِيَتْ أو أكرها على القريب والبعيد، ولم يكن أحد من ذوى السلطان الأعظم أشدَّ فحَصًا وبحثًا عن أمور الناس؛ حتى بلغ هذا المبلغ في الاستقصاء، وجعله أكبر شُغْلِهِ، وأكثره في ليله ونهاره، من إسحاق بن إبراهيم. حدثني موسى بن صالح بن شيخ؛ قال: كَلَّمْتُهُ في امرأة من بعض أهلنا، وسألته النظر لها، فقال: يا أبا محمد، مِنْ قِصَّةِ هذه المرأة ومن فعلها... قال: فوالله: ما زال يحدثني ويخبرني^(٢) عن قِصَّتِها، ويصف أحوالها حتى بُهِتَ.

وحدَّث أبو البرق الشاعر، قال: يُجْرَى عَلَى أَرْزَاقًا^(٣) فدخلت عليه؛ فقال بعد أن أنشدته: كم عيالك تحتاج في كل شهر^(٤)؟ قلت: من الدقيق إلى كذا، ومن الحطب إلى كذا، فأخبرني بشيء من^(٥) أمر منزلي جهلت بعضه وعلمه كله.

وحدَّث بعض من كان في ناحيته، قال: رفعتُ إليه قِصَّةً أسأله فيها أجرًا وأرزاقًا، فقال: كم عيالك؟ فزدتُ في العدد. فقال: كذبتُ؛ فبُهِتَ وقلت: يا نفس؛ من أين علم أني كذبتُ! فأقمتُ سنةً أخرى لا أجسر على كلامه^(٦)، ثم رفعتُ إليه القصة، فقال: كم عيالك؟ فقلت: كذا، قال: صدقتُ، ووقع^(٧) في القِصَّة، يُجْرَى على عياله كذا وكذا.

ويقال: إن كِسْرَى أبرويز كان [قد^(٨)] نَصَبَ رجلًا يمتحن به مَنْ فسدت عليه نيته من رعيته، وطَعَنَ في المملكة، فكان الرجل يُظْهِرُ التَّأَلُّهَ^(٩) والدعاء إلى التخلُّ من الدنيا، والرغبة في الآخرة، وترك أبواب الملوك. وكان يقصُّ على الناس ويكيِّمهم ويشوبُّ كلامه في خلال ذلك بذمَّ الملك^(١٠)، وتركه^(١١) شرائع ملئته، وسُنَن سيرته ودينه الذي كان عليه، وكان هذا الرجل يمثل ما حدَّه له أبرويز ليمتحن بذلك خاصته، وكان من يسعى يُخْبِرُ أبرويز بذلك، فيضحك ويقول: فلان في عقله ضعف، وأنا أعلم أنه وإن كان يتكلَّم لا يقصدني بسوء، ولا المملكة بما يُوْهِنُها ويُظْهِرُ الاستهانة بأمره والثقة به والطَّمَأْنِينَةَ إليه، ثم يوجِّه إليه في خلال ذلك من يدعوه، فيأبى أن يجيبه، ويقول: لا ينبغي لمن خاف الله أن يخاف أحدًا سواه، فكان الطاعن على الملك والمملكة يكثر الخلوة بهذا الرجل، والزيارة له والأنس به، فإذا خُلِّيَا^(١٢) تَذَاكَرَ أَمْرَ الملك فابتدأ الناسُ فطعن فيه وأعانه الخائن وطائفة^(١٣) على ذلك وشايعة، فيقول الناس: إياك وأن يُظْهِرَ^(١٤) هذا الجبار على كلامك،

(١) ل: «كان المؤمنون أيامه».

(٨) من ك.

(٢) ل: «ويخبر».

(٩) التأله: التعبد والتنسك.

(٣) ك: «رزقا».

(١٠) ك: «الملوك».

(٤) ك: «كم عيالك يحتاجون نفقة في كل شهر؟».

(١١) ك: «وترك».

(٥) ك: «في أمر منزلي».

(١٢) ط: «أخليا»، وأثبت ما في ك، ل.

(١٣) ط: «طائفة».

(٦) ك: «خطابه».

(١٤) ك: «تظهر».

(٧) ك: «وقع لي».

فإنه لا يحتمل لك ما يحتمله لى، فحَصَّن^(١) منه دمك. فيزداد الآخر إليه استئماناً وبه ثقة، فإذا علم الناسك أنه قد بلغ من الطعن على الملك ما يستوجب به العقوبة^(٢) في الشريعة، قال لمن بحضرته: إني قاعد غداً مجلساً للناس أقصُ عليهم فاحضروه، ويقول لمن هو أشدُّ به ثقة: احضر أنت، فإنك رجل رقيق عند الذكر، حسن النية، ساكنُ الريح، بعيدُ الصوت، وإن الناس إذا رأوك قد حضرت زادت نياتهم خيراً؛ وسارعوا إلى استجابتي فيقول الرجل: إني أخاف من هذا الجبار، فلا تذكره إن حضرت، وكانت العلامة بينه وبين أبرويز، أن أبرويز قد كان وضع عيوناً يحضرون متى جلس، فكان الناسك يقصُّ على العامة، ويُرْهِدُ في الدنيا، ويرغبُ في الآخرة، والحائن حاضر، فيأخذ الناس في ذكر الملك، فينهض الحائن، وتجيء عيون أبرويز فتخبره بما كان، فإذا أزال الشكَّ عنه في أمره، وجَّهه إلى بعض البلدان، وكتب إلى عامله: قد وجَّهْتُ إليك برجل، وهو قادم عليك بعد كتابي هذا، فأظهر برّه، والأنس به والثقة إليه، والسكون إلى ناحيته، فإذا اطمأننت به الدار^(٣) فاقتله قتلة تحبى بها بيت النار، وتصل بها حرمةَ النوبهار^(٤)، فإن من فسدت نيته بغير علة في الخاصة والعامة لم يصلح بعلّة، ومن فسدت نيته بعلّة صلحت بخلافها.

* * *

قال: وحَدَّثنا الوضَّاحُ بنُ محمد بن عبد الله، قال: سمعتُ أبا بُدَيْل بن حبيب يقول: كنّا إذا خرجنا من عند أبي جعفر المنصور، صرنا إلى المهديّ؛ وهو يومئذ وليُّ عهد. ففعلنا ذلك يوماً، فأبرز لى المنصور يده، فانكببتُ عليها وقبّلتها، فضرب يدي بيده، فعلمت أنه لم يفعل ذلك إلّا لشيء في يده، فوضع في يدي كتاباً صغيراً تسترهُ الكف، فلما خرجت قرأت الكتاب فإذا فيه: إذا قرأت كتابي هذا فاستأذن إلى ضياعك^(٥) بالرّى. فرجعت فاستأذنت، فقلت: يا أمير المؤمنين، ضياعى بالرّى قد اختلّت، ولّى حاجةً إلى مطالعتها، فقال: لا، ولا كرامة! فخرجت، ثم عدت إليه اليوم الثاني فكلمته، فردّ علىّ مثلَ الجوابِ الأوّل، فقلت: يا أمير المؤمنين، وهل أنا ومالى إلّا من نعمتك! حققت دمي، ورددت علىّ مالى، وآثرتنى بصحبتك، فقال: إنه يهيجس في نفسه أن المرّارين جهور بهم بخليعى، وليس لى غيرك؛ لما أعرف بينك، فأظهر إذا صرت إليه الواقعة فيّ، والتنقص لى حتى تعرف ما عنده، فإذا رأيته بهم بخليعى، فاكتب إلىّ؛ ولا تكتبن على بريد ولا مع رسول، ولا يفوتنى خبرك في كلّ يوم، فقد نصبت لك فلاناً القطان في دار القطن، فهو يوصل كُتُبَك.

قال: فمضيتُ حتى أتيت الرّى، فدخلت على مرّار، فقال: أفلت! قلت: نعم والحمد لله، ثم أقبلتُ أوّاسه بالواقعة في المنصور؛ حتى أظهر ما كان المنصور ظنّ به.

فكُتِبْتُ إليه بذلك، فلما وصلتُ منه إلى ما أردت أتيت ضياعى، ثم رجعتُ إليه بعد أيام، فقال: نجاك الله من الفاجر! قلت: نعم، وأرجو ألا تقع عينه علىّ أبداً، فكنت أعرضُ به فيزيدنى ممّا

(١) ط: «فحص».

(٢) ك: «القتل».

(٣) ك: «الديار».

(٤) ك: «الديار».

(٥) ك: «الديار».

عنده، ثم قال لي: هل لك أن نخرج إلى منتزه طيب؟ قلت: نعم؛ فخرجت أنا وهو نتساير حتى صرنا إلى موضع مُشرف قد بنيت له عليه قبة، فأحُدُّ النظر إلى ما هناك، ثم قال: يا أبا بُدِيل، أترى الفاجر يظنُّ أنَّي أعطيه طاعةً أبداً ما عشت! أشهد أنَّي خلعتُه كما خلعتُ خفي هذا من رجلي.

قال: فرجعت إلى منزلي، وأنا في كلِّ يوم أكتبُ بخبره، قال: وقد كنت أعددْتُ تسعة فرسان من بني يربوع، ورجلاً من بني أسد، فواطأهم أن نبطش^(١) به، وكتبْتُ إلى المصمغان^(٢) أن يأتيه في جنده إلى الموضع الذي اتفقنا عليه.

قال: وأخذ المزار الدواء في ذلك اليوم وسبق إليه الأسدُ بالخبر، وقال: احذر؛ فقد اتَّخذ لك كيت وكيت. قال: فدخلت عليه، فإذا هو على كرسي، فعرفتُ الشرَّ في وجهه والنتكرَ في نظره، فقال: هيه يا أبا بُدِيل! مع إكرامي لك أردتُ أن تقتلني؟ قال: فتضاحكتُ وقلت: بلغ من مكْرِه أن دَسَّ إليك^(٣) هذا الأسدُ! لقد عملتُ فيك حيلته. ثم حرَّكته بطنُه فقام إلى الخلا، وقال: لا ترم، فلما ولَّى وثبتُ وخرجتُ مسرعاً، فقال الحاجب: أسرع! قلت: نعم في حاجة للأمير، وركبتُ فرسي، فرأيتُ القوم قد واقفوا كلُّهم إلا الأسدُ، فعلمتُ أنه صاحبي، فلما خرج سأل عني فأخبر بمضيتي فوجه خيلاً في طلبي، فمال اليربوعيون فدفعوهم، ومضيتُ حتى صرْتُ إلى المصمغان، وكتبْتُ إلى أبي جعفر المنصور كتاباً مكشوفاً، فكتب: إني قد عرفتُ ما وصفته، وقد صحَّ الأمر. ثم كتب إلى خازم بن خزيمة، فصار إليه حتى أخذه.

على بن بُريهة الهاشمي، قال: صاحب عذاب أبي جعفر: دعاني أبو جعفر المنصور ذاتَ يوم، وإذا بين يديه جارية صفراء، وقد دعا لها بأنواع العذاب، وهو يقول لها: ويلك! اصدِّقني، فوالله ما أريدُ إلا الألفه، ولئن صدَّقني لأصلنَّ الرِّجَم، ولأتابعنَّ البرَّ إليه، وإذا هو يُسألُها عن محمد بن عبد الله، وهي تقول: ما أعرف مكانه، ودعا بالدِّهق^(٤) وأمر به فوضَّع عليها، فلما كادت نفسها أن تتلف قال: أمسِكوا عنها، وكرِه ما رأي، وقال لأصحاب العذاب: ما دواء مثلي إذا صار إلى مثل حالها؟ قالوا: الطَّيبُ تُشْمُه، والماءُ الباردُ يُصَبُّ على وجهها، وتُسَقَى السُّويق. فأمر لها بذلك، وعالج بعضه بيده، وقال لأصحاب العذاب: ألا أعلمتموني بما ينالها فأكفَّ عنها؟ قالوا: قد علمنا أنَّها لا تقوى على هذا، ولكنَّا هَبْنَاهُ؛ فما زالوا يردِّدون عليها نفسها حتى أفأقت، وأعاد عليها المسألة، فأبَتْ إلا الجحود، فقال لها: أتعرفين فلانة الحجَّامة؟ فاسودَّ وجهها وتغيَّرت، وقال: نعم يا أمير المؤمنين، تلك في بني سليم، قال: صدقت! هي والله أمتي ابتعتها بمالي، ورزقي يُجرى عليها في كلِّ شهر، وكِسوةٍ شتائها وصيفها على، أمرتها أن تدخل منازلكم وتحجِّمكم وتتعرَّف أخباركم. ثم قال:

(١) ك: «بيطش».

(٢) ك: «المصمغان».

(٣) ل: «المصمغان»، ك: «المصمغان» وما أثبتته من الطبري. (٤) الدهق: خشبتان يغمر بها ساقا المجرمين.

أو تعرفين فلاناً البقال؟ قالت: نعم، هو في بني فلان، قال: هو والله مُضاربٌ بخمسة دنانير، أمرته أن يبتاع بها كل ما يحتاج إليه من البُيوع، فأخبرني أن أمةً لكم يومَ كذا وكذا، من شهر كذا، صلاة المغرب، جاءت تسأله حناءً^(١) وورقاً، فقال لها: ما تصنعين بهذا؟ فقالت: كان محمد بن عبد الله في بعض ضياعه بناحية البقيع وهو يدخل الليلة، فأردنا هذا لتتخذ منه النساء ما يحتاجن إليه عند دخول أزواجهن من المغيب. فأسقط في يدها، وأذعنت لكل ما أراد.

قيل: وإن أبا جعفر كتب في حمل عبد الله بن الحسن وأهل بيته من المدينة إلى حضرته، فلما أخرجوا كثر عليهم البكاء، فقال عبد الله: أفيقوا من البكاء، وأوغلوا في الدعاء، فإني أشهد الله على ما أردت من إحياء الحق وإماتة الباطل، فجرى القدر بما جرى، فجداى^(٢) الحسن والحسين قتلاً بسم وسيف، فالحمد لله الذي جعل منايانا جهاداً، ولم يجعلها^(٣) مهاداً.

وأخبرنا إبراهيم بن السندي بن شاهك^(٤) - وكان من العلماء بأمر الدولة - قال: قال لي المأمون: نبئت أنك عالم بأمر الدولة ورجال الدعوة. قلت: ذلك الذي يلزمني يا أمير المؤمنين بعد الفرض، أن أعرف أيام موالى ومحاسن ساداتي. قال: فهات ما عندك، ثم أنشأ يحادثني^(٥) ويسألني عن أمور خفية لم تخطر ببالى قط، فكان منها أن قال: ما اسم أم قحطبة بن شبيب؟ قلت: لا أعلم، قال: لبابة بنت سنان، ثم قال: ما اسم أبي عون؟ قلت: لا أدري، قال: فلان، فوالله مازال يسألني عن خفي أمر الدولة، ولا يجد عندي جواباً، ولا يزيدني على أن تبسم^(٦)، فكلما فعل ذلك زاد في عيني، وضعت عند نفسي. قال: فكان آخر ما قال: أخبرك أن بعض أهلنا ذات يوم رأته وهي حامل مئيم، كأنه أتاها آت في منامها، فقال لها: يولد في هذه الليلة خليفة، ويموت خليفة، ويستخلف خليفة. فمات الهادي في تلك الليلة، واستخلف الرشيد، وولدت أنا.

وعن إبراهيم بن السندي بن شاهك: قال: لما اختار يحيى بن أكرم العشرة من الفقهاء. وأحضرتهم مجلس المأمون لمذاكرة الفقه، جعل له يوماً في الجمعة يحضرون مجلسه، فقال لي المأمون، يا إبراهيم: احضر، فلست بدون أكبرهم، فكنت أحضر، وكان قد اختار من أيام^(٧) الجمعة يوم الثلاثاء قال: فحضرت يوماً، فلما أمسك المأمون عن المسائل نهض القوم - وكان ذلك إذنه بانصرافهم - فوثبت معهم، فقال بيده: مكانك يا إبراهيم، ففعدت، وقام يحيى، وساءه تخلفي، فقال لي - ودخل إبراهيم بن المهدي: هات ذكر من في عسكرنا ممن يطلب ما عندنا بالرياء. فقلت

(٥) ل: «يحادثني».

(٦) ل: «ابتسم».

(٧) ل: «جعل من أيام».

(١) ك: «عن حناء».

(٢) ط: «فجداى».

(٣) ك: ل: «يجعله».

(٤) ك: «الشاهك».

ما عندي؛ وقال إبراهيم ما عنده، فقال: ما أرى عند أحد ما يبلغ إرادتي، ثم أنشأ يحدث عن أهل عسكره، حتى والله لو كان قد أقام في رَحْل كل رجل حولاً لما زاد على معرفته. وقال: إنه كان مما حفظت عنه في ثَلَب أصحابه أنه قال: تسبيح مُحمَّد الطوسي، وصلاة قحطبة، وصيام النُوشجاني، ووضوء بشر المريسي، وبناء مالك بن شاهك المساجد، وبكاء إبراهيم بن بريهة على المنبر، وجمع الحسين بن قريش التيامي^(١)، وقصص مرجي، وصدقة علي بن هشام، وحملات إسحاق بن إبراهيم في سبيل الله، وصلاة أبي رجاء الضحى، فقال لي رجل من عطاء العسكر حين خرجنا من الدار: هل رأيت أو سمعت قطُ ملكاً أعلم برعيته وأشد تنقيراً من هذا؟ قلت: اللهم لا، فحدثت بهذا الحديث بعض أهل الخطر، فقال: وما تصنع بهذا، وقد كتب إلى إسحاق بن إبراهيم في الفقهاء بمعابهم رجلاً رجلاً، حتى إنه أعلم بما في منازلهم منهم!

قال: وحديثنا سليمان بن علي التوفلي قال: سمعت عمرو بن مسعدة يقول: قال لنا المأمون يوماً من الأيام: من أنبل من تعلمون نبلاً، وأعفهم عفة؟ قال: فقلنا وأكثرنا، فبعضنا مدحه وقرطه وقدمه على كل خليفة وإمام، وعددنا ما نعرف من مكارم الأخلاق. فقال: ما كمال المناقب إلا لبي هاشم غير أنا لم نردّها ولا أردنا خلفاءها؛ قال علي بن صالح: أعرف القصة في عمر بن الخطاب رحمه الله فأشاح بوجهه وأعرض، وذكر كلاماً ليس من جنس هذا الكتاب فنذكره؛ ثم قال: ذاك والله أبو العباس عبد الله بن طاهر؛ دخل مصر وهي كالعروس الكاملة؛ فيها خراجها، ورها أموالها جمة، ثم خرج عنها، فلو شاء الله أن يخرج عنها بعشرة آلاف دينار لفعل، ولقد كان لي عليه عين ترعاه، فكتب إلى أنه عرضت عليه أموال لو عرضت علي أو بعضها لشرفت إليها نفسي، فما علمته خرج عن ذلك البلد إلا وهو بالصفة التي قدم عليها^(٢) إلا مائة ثوب وحمارين وأربعة أفراس^(٣)، فمن رأى أو سمع بمثل هذا الفتى في الإسلام، فالحمد لله الذي جعله غرس يدي، وخريج نعمتي!

وقال بشر بن الوليد: كان والله المأمون المليك حقاً، ما رأيت خليفة قط كان الكذب عليه أشد منه على المأمون؛ وكان يحتمل كل آفة تكون بالإنسان إلا الكذب. قال: فقال لي يوماً: صف لي أبا يوسف القاضي فإني لم أره. فوصفته له فاستحسن صفته وقال: وددت أن مثل هذا بحضرتنا فتزني به. ثم أقبل علي وقال: ما في الخلافة شيء إلا وأنا أحسن أن أدبره وأبلغ منه حيث أريد وأقوى عليه، إلا أمر أصحابك - يعني القضاة - وما ظنك بشيء يتحرّج منه علي بن هشام، ويتوقى سوء عاقبته ويكالب عليه الفقهاء وأهل التصنع! قال: قلت: يا أمير المؤمنين، وما أدري ما تقصده فأجيب عنه؟ قال: لكني أدريه وأدريك، ولا والله ما تحييني عنه ولا فيه بجواب مقنع. ثم قال: ولينا رجلاً أشرت به قضاء الأبله، وأجرينا عليه في الشهر ألف درهم، وماله صناعة ولا تجارة،

(٣) ك: «أقواس».

(١) كذا في ك وفي ل من غير نقط.

(٢) ل: «التي قدمه فيها».

ولا كان له مال قبل ولايتنا إياه، وولينا رجلاً آخر قضاء دِمَشْق. وأجرينا عليه ألف درهم في الشهر، أشار به إلى محمد بن سماعة. فأقام بها أربعة عشر شهراً فوجهنا من يتبع أمواله في السر والعلانية، ويتعرف حاله، فأخبر أنه وجد ما ظهر من ماله في هذا المقدار من دابة وغلّام وجارية وقرش وأثاث، قيمته ثلاثة آلاف دينار، وولينا رجلاً أشار به إلى فلان نهاوند، فأقام بها أربعة وعشرين شهراً، فوجهنا من يتبع أمواله، فأخبرنا أن في منزله خدماً وخصياناً بقيمة ألف وخمسمائة دينار؛ سوى نتاج قد اتخذ. فهات ما عندك من الجواب. فقلت: ما عندي يا أمير المؤمنين جواب. قال: ألم أعلمك! ثم قال: وكبر من هذا وأطم أني فزعت إلى علي بن هشام في رجل أوليه القضاء، فقال: قد أصبت واحداً، والله يشهد أنه سرقني، ورجوت أن يكون بحيث أحب. قلت: فأعذ به علي. قال: أفعل ثم غداً، فقلت: أين الرجل؟ فقال: لم أجده في الفقه بالموضع الذي يجب أن يتصل صاحبه بأمر المؤمنين، قال: فأنكرت عليه. وأظهرت الغضب، فقال: يا أمير المؤمنين. إن الرجل الذي ذكرته لك بالأمس، هو علي بن مقاتل. وكان عندي من أهل العفاف والستر. فانصرف بالأمس على أن أحضره، فوجهت إليه وأنا لا أشك أنه سيظهر الكراهية فيما أراد له أمير المؤمنين. وإن كان يستبين غيرها ويستعفي؛ كفعل من يتصنع أو يكره ذلك بالحقيقة، فلما جاءني ألقى إليّ إليه الذي أردته له. فلما تمالك أن وثب فقبل رأسي. فعلمت أنه لا خير عنده. وأنه لو كان من أهل الفضل والخير لعد الذي دُعِيَ إليه إحدى المصائب. فلم أر لنفسه أن أحضره، ولا أن يستعان بمنّله. فقلت: جزاك الله خيراً عن إمامك أحسن ما جرى امراً عن إمامه. وعن دينك ونفسك.

قال بشر: فبهت وانقطعت ولم أجز كلمة^(١) فقال: لا، ولكن إن أردت العفيف النظيف الزاكي النقي الطاهر، فقاضى الرئي، هو بالحالة التي فارقت عليها، والله ما غير ولا بدل. فأما قولهم في يحيى بن أكنم، فما ندرى ما عيبه، إلا أن ظاهره أنه أعف خلق الله عن الصفراء والبيضاء، حمل إلينا من أموال الحشرية^(٢) أربعمائة ألف دينار، فأنى نفس تسخو بهذه!

قال بشر: فقلت: يا أمير المؤمنين، مالك في الخلفاء شبيه إلا عمر بن الخطاب؛ فإنه كان يقحّص عن عماله، وعن دفين أسرار حكامه فحصاً شافياً، فكان لا يخفى عليه ما يفيد كل امرئ وما ينفق، وكان من نأى عنه كمن دنا منه في بحثه وتنقيره. فقال المأمون: إن أهم الأمور كلها أمور القضاء والحكام، إذ كنا قد ألزمناهم النظر في الدماء والأموال والفروج والأحكام، فوددت أني أجد مائة حاكم، وأنى أجوع يوماً وأشبع يوماً.

حمدون بن اسماعيل النديم، قال: حضر العيد، فعباً المعتصم بالله خيله تعبئة لم يسمع بمنّله، ولم

(١) لم أحر: لم أرد.

(٢) الحشرية: الأموال التي تضاف إلى بيت المال من التركات التي لا وارث لها أخذت من كلمة حشر، بمعنى «جمع» دوزي

يُرَاحِد من ولد العباس شبيه^(١) بها، وأمر بالطريق فمسح من باب قصره إلى المصلّى، ثم قسم ذلك على القوّاد، وأعطى كلّ واحد منهم مَصَافَه، فلما كان قبل الفطر بيوم، حضر القوّاد وأصحابهم في أجل زَيٍّ^(٢) وأحسن هيئة، فلزموا مصافهم منذ وقت الظهر إلى أن ركب المعتصم بالله إلى المصلّى، فكان الموضع الذي وقع لإبراهيم بن المهدي من بعد الحريسيّ بحذاء مسجد الخوارزمي، وإبراهيم واقف وأصحابه في المصاف، فلما أصبح المعتصم أمر القواد الذين لم يرتبوا في المصاف بالمصير إلى المصلّى على التعبئة التي حدّها، ولبس ثيابه، وجلس على كرسيّ ينتظر مُضَى القوّاد، فلما انقضى أمرهم، تقدّم إلى الرّجّال في السير بين يديه، فتقدّم منهم سبعة آلاف ناشب من الموالي، كلّ ثلاثمائة منهم زَيٍّ مخالِف لِزَيِّ الباقيين، وأربعة آلاف من المغاربة، وأمر الشيعة فكانوا وراءه بالأعمدة، وعدّتهم أربعة آلاف، وركبت لا أدري منزلتي أين هي، ولا أعرف مرتبتي ولم أعلم أين أسير من الموكب! فلما وُضِعَ رجله في الركاب، واستوى على سرجه التفت إلى وقال: يا حمدون، كن أنت خلفي. فلزمت مؤخر دابّته، فلما خرج من باب القصر تلقاه القوّاد وأصحاب المصاف^(٣) يخرج الرجل من مصافه، فإذا قرب نزل وسلّم عليه بالخلافة، فيأمره بالركوب، ويمضي^(٤)، حتى وصل إلى إبراهيم بن المهدي، فنزل وسلّم عليه بالخلافة، فردّ عليه السلام، فقال: كيف أنت يا إبراهيم؟ وكيف حالك؟ وكيف كنت في أيّامك؟ أركب. فركب، فلما جاوزته التفت إلى وقال: يا حمدون، قلت: ليبيك يا أمير المؤمنين، قال: تذكر! قلت: إى والله يا سيّدي، وأمسك، فنظرت^(٥) فيها قال، فلم أجدني أذكر شيئاً في ذلك الموضع ممّا يشبه ما كنّا فيه، فنغض على يومي، وما رأيت من حسنه وسروري بالمرتبة التي أهلني بها، وقلت: الخلفاء لا يعاملون بالكذب، ولا يجوز أن يسألني عند انصرافه عن هذا الأمر. فلا يكون له عندي جواب ولا حقيقة، وتخوّفت أن ينالني منه مكروه، فلم أزل واجماً في طريقي إلى وقت انصرافه، ثم أجمعت على مغالطته إن أمكنني، وأعمل الحيلة في التخلص أن يسألني.

فلما استقرّ في مجلسه وُسط السّماط، وجلس القوّاد على مراتبهم للطعام؛ أقبلت أخدم وأختلف، ليست لي همة غير ما كان قاله لي، لا أغفل عن ذلك حتى انقضى أمر السّماط وُرفِع السّتر، ونهض أمير المؤمنين ودخل الحجرة ومضى إلى المرقد، فلم ألبث أن جاء الخادم وقال لي: أجب أمير المؤمنين.

فمضيت، فلما ضحك لي وقال: يا حمدون، رأيت! قلت: نعم يا سيّدي، قد رأيت، فالحمد لله الذي بلغ بي هذا اليوم وأرانيه؛ فلما رأيت ولا سمعت لأحد من الخلفاء والملوك بأجلّ منه ولا أبهى ولا أحسن. قال: ويحك! رأيت إبراهيم بن المهدي! قلت: نعم يا سيّدي؛ قال: رأيت سلامة على وردى عليه ونزوله إلى؟ قلت: نعم، فقال: إنه لما كان من أمره ما كان - يعني الخلافة - قسم

(١) (ك): «ومضى».

(٥) (ك): «ففكرت».

(١) ك: «مثلها».

(٢) ك: «زينة».

(٣) ل، ل: «المصاحف».

الطريق في يوم عيد من منزله إلى المصلى، كقسمتى إِيَّاه في هذا اليوم بين قُوَّاده، فوقَّع موضعي منه الموضع الذى كان به هذا اليوم، فلَمَّا حاذَى نزلتُ فسَلَّمْتُ عليه، فردَّ عَلىَّ مِثْلَ ما رددته حرفاً حرفاً على ما قال لى.

قال: فدعوتُ له، وانفرج عني ما كنتُ فيه، وتخلَّى عني الغم والكرب، ثم قال: يا حمدون، إني لم أكلُ شيئاً، وأنا أنتظر أن تأكلَ معي، فامضِ إلى حُجرة الندماء، فإنك تجد إبراهيم هنالك، فاجلس إليه وعائنه وضاحكه وأجر له هذا الحديث، وقل له: إنك رأيته في ذلك اليوم فعَل بي فِعْلي به في هذا اليوم، وانظر إلى وجهه وكلامه، وما يكون منه فعرفني على حقيقته، واصدُقني عنه وعَجِّل ولا تحتبس.

قلت: نعم يا سيدي، فمضيتُ وقد دُفعتُ إلى أغلظَ ممَّا كنتُ فيه؛ لِعلمي بأن إبراهيم لو كان من حجر لأثرَ فيه هذا القول، وتغيَّرَ وظَهَرَ منه ما يكره، وخفتُ أن يأتي^(١) بما يُسفك به دمه، فمضيتُ حتى دخلتُ الحجرة، فجلستُ إلى إبراهيم، وفعلتُ ما أمرني به، وأنا مبادر خوفاً من خادم يلحقني^(٢) أو رسول؛ فلا يمكنني معه تحسين الأمر وما يظهر لى منه.

فقلتُ لإبراهيم: كيف رأيته يا سيدي هذا اليوم؟ أما أعجبكَ حسنه، وما كان في تعبئة أمير المؤمنين! قال: بلى والله، إنه أعجبني، فالحمد لله الذى بلغني وأرانيه؛ وأطرب في الدعاء للمعتصم، فلما أمسك قلتُ: يا سيدي، أذكرك في أيامك، وقد ركبتُ فعبيتُ شبيهاً بهذه التعبية، وقسمتُ الطريق مثل هذه القسمة، فوقَّع لأمير المؤمنين الموضع الذى وقع لك، واجتزتُ به فنزلَ إليك وسلِّم، فرددتُ عليه كرَّهه عليك في هذا اليوم؟ قال: فو الله إن كان إلا أن قلتُ؛ حتى اربدَ لونه، وجفَّ ريقه، واعتقلَ لسانه، وبقي لا يتكلَّم بحرف ملياً، ثم قال بلسان ثقيل: لكأني في ذلك الموضع في ذلك اليوم! فالحمد لله الذى رأيته لأمير المؤمنين، فعل الله به وفعل!

قال: فتغنمتُ ذلك، وقمتُ وأنا ألتفت، ونهضتُ حتى أتيتُ المعتصم، فقال لى: هيه يا حمدون! فقلتُ: يا أمير المؤمنين، أتيتُ إبراهيم وقلتُ له ما أمرتني به، فأظهر سروراً ودعاءً، وقال كيت وكيت، فقال: والله قال بحياتي! قلتُ: وحياتك يا أمير المؤمنين! قال: فكيف رأيته وجهه؟ فلم أدر ما أقول؛ فقلتُ: يا أمير المؤمنين، بالله لما تركتني من وجه عمك الذى لا يتبين فيه فرح ولا حزن! فاستضحك، ثم أمسك.

وتخلَّص إبراهيم، ودعا بالطعام فأكلنا، ثم رقد فلما انتبه وجلس، دعا بإبراهيم وسائر الندماء، فشرب وبرَّ إبراهيم وأطفئه.

(١) ل: «أن يكون يأتي».

(٢) ك: «أن يلحقني».

مساوىء التيقظ وتركه

قيل^(١) لبعض بني أمية: وما كان سبب زوال مُلكهم؟ فقال: قلّة التيقظ، وشُغلنا بِلذاتنا عن التفرّغ لمهماتنا، ووَيْقنا بكفّاتنا فأثروا مرافقهم علينا وظلّم عمّالنا رعيّتنا ففسدت نيّاتهم لنا. وحمل على أهل خراجنا؛ فقلّ دخلنا، وبطل عطاء جُنْدنا فزالت طاعتهم لنا. واستدعاهم أعداؤنا فأعانوهم^(٢) علينا، وقصّدا بغاتنا. فعجزنا عن دفعهم لقلّة أنصارنا^(٣). وكان أوّل زوال مُلكنا استتار الأخبار عنّا فزال مُلكنا عنّا بنا.

(١) ك: «وقيل».

(٢) ك، ل: «فعاونوهم» تصحيف.

(٣) ل: «نصارنا» وما أثبتته من ك.

محاسن الرسل

يقال: إن ملوك العجم كانت إذا احتاجت إلى أن تختار من رعيّتها من تجعله رسولاَ تمتحنه أولاً؛ بأن تُوجّهه إلى بعض خاصّتها، ثم تقدّم عيناُ على الرسول يحضر ما يؤدّيه من الرسالة، ويكتبُ كلامه، فإذا رجع الرسول بالرسالة، جاء العين بما كتب من ألفاظه وأجوبته، فقابل بها الملك ألفاظ ذلك الرسول، فإن اتفقت معانيها عرّف بها الملك صحّة عقله، وصدّق لهجته، ثم جعله رسولاَ إلى عدوّه، وجعل عليه عيناُ يحفظ ألفاظه ويكتبها، ثم يرفعها إلى الملك، فإن اتفق كلام الرسول وكلام عين الملك وعلم أن رسوله قد صدّقه عن عدوّه ولم يزد عليه، جعله رسولاَ إلى ملوك الأمم، ووثق به، ثم بعد ذلك يقيم خبره مقام الحجّة، ويصدّق قوله.

وكان أردشير يقول: كم من دم سفّكه الرسول من غير حِلّه ولا حَقّه! وكم من جيوش قد قُتِلَتْ وعساكر قد انتهكت، ومال قد انتهب، وعهد قد نُقضَ بجناية الرسول وأكاذيبه! وكان يقول: على الملك إذا وجّه رسولاَ إلى ملك آخر أن يُردفه بآخر، وإن وجّه رسولين أتبعهما^(١) بآخرين، وإن أمكنه ألاّ يجمع بينهما في طريق ولا ملاقة، وألاّ يتعارفا فيتفقا ويتواطأ في شيء، فعل.

ثم عليه إن أتاه رسولٌ بكتاب أو رسالة من ملك في خير أو شرٍّ ألاّ يحدث حَدثاً في ذلك حتّى يكتب إليه مع رسول آخر، ويحكى به^(٢) كتابه الأول حرفاً حرفاً، فإن الرسول ربما خرم ما أمل عليه، وافعل الكتب، وحرّص المرسل على المرسل إليه، وأغراه به، وكذب عليه ومنها قال أبو الأسود، وقد سمع رجلاً يُنشد:

إذا كنت في حاجة مُرسلاً فأرسل حكيمًا ولا توصه
[المقارب]

فقال: قد أساء القول، أيعلم الغيب إذا لم يوصه! كيف يعلم ما في نفسه! ألا قال:
إذا أرسلت في أمر رسولاَ فأفهمه وأرسله أديباَ
ولا تترك وصيته لشيء وإن هو كان ذا عقل أريباَ

(١) ك: «أن يتبعها».

(٢) ك: «له».

وإن ضَيَّعتَ ذاكَ فلا تَلُمهُ على أن لم يكن عَليمَ الغيوبِ^(١)
[الوافر]

قال يحيى بن خالد البرمكي: ثلاثة أشياء تدلّ على عقول الرجال: الهدية والرسول، والكتاب.

(١) الخبر في الأغاني ١٦: ٨٢، ٨٣ عن حماد الراوية على هذا النحو: أنشدت أبا عطاء السدي في أثناء حديث هذا البيت فقال:

إذا كنتَ في حاجة مرسلًا فأرسلَ حكيماً ولا توصِ
فقال أبو عطاء: بشي قال! فقلت: كيف تقول أنت؟ قال أقول:
إذا أرسلتَ في أمرٍ رسولًا فأفهمه وأرسله أديبًا
وإن ضَيَّعتَ ذاكَ فلا تَلُمهُ على أن لم يكن علم الغيوبِ

مَسَاوِي الرُّسُول

وَحَكِي عن الإسكندر أَنَّهُ وَجَّهَ رِسُولاً إِلَى بَعْضِ مَلُوكِ الْمَشْرِقِ، فَجَاءَهُ رِسُولُهُ بِرِسَالَةٍ فَشَكَ فِي حَرْفٍ مِنْهَا، فَقَالَ لَهُ الْإِسْكَندَرُ: وَيْحَكَ! إِنَّ الْمُلُوكَ لَا تَخْلُو مِنْ مَقُومٍ وَمُسَدَّدٍ إِذَا مَالَتْ بِطَانَتِهَا؛ وَقَدْ جِئْتَنِي بِرِسَالَةٍ صَحِيحَةِ الْأَلْفَاظِ بَيِّنَةِ الْعِبَارَةِ، غَيْرَ أَنَّ فِيهَا حَرْفاً يَنْقُضُهَا^(١)، أَفَعَلَى يَقِينٍ أَنْتَ مِنْ هَذَا الْحَرْفِ أَوْ أَنْتَ شَاكٌ فِيهِ؟ فَقَالَ الرِّسُولُ: بَلْ عَلَى يَقِينٍ. قَالَ: فَأَمْرُ الْإِسْكَندَرِ أَنْ تُكْتُبَ أَلْفَاظُهُ حَرْفاً حَرْفاً، وَتَعَادَ إِلَى الْمَلِكِ مَعَ رِسُولٍ آخَرَ، فَيَقْرَأَ عَلَيْهِ وَيَتَرْجِمَ لَهُ، فَلَمَّا قَرَأَ الْكِتَابَ عَلَى الْمَلِكِ؛ فَمَرَّ بِذَلِكَ الْحَرْفِ أَنْكَرَهُ، فَقَالَ لِلْمُتَرْجِمِ: ضَعْ يَدِي عَلَى هَذَا الْحَرْفِ، فَوَضَعَهَا، فَأَمْرُ أَنْ يَقْطَعَ ذَلِكَ الْحَرْفَ بِسَكِينٍ، فَقَطَعَ مِنَ الْكِتَابِ، وَكُتِبَ إِلَى الْإِسْكَندَرِ رَأْسُ الْمَمْلُوكَةِ صَحَّةً فَطَنَهُ الْمَلِكُ، وَأَسُّ الْمَلِكِ^(٢) صَدَقَ لَهْجَةُ رِسُولِهِ؛ إِذْ كَانَ عَنْ لِسَانِهِ يَنْطَقِي، وَإِلَى أُذُنِهِ يَوْدِي، وَقَدْ قَطَعْتَ بِسَكِينِي مَا لَمْ يَكُنْ مِنْ كَلَامِي؛ إِذْ لَمْ أَجِدْ إِلَى قَطْعِ لِسَانِ رِسُولِكَ سَبِيلاً.

فَلَمَّا جَاءَ الرِّسُولُ بِهَذَا إِلَى الْإِسْكَندَرِ، دَعَا الرِّسُولَ^(٣) الْأَوَّلَ، فَقَالَ: مَا حَمَلَكَ عَلَى كَلِمَةٍ أُرَدْتُ بِهَا فُسَادَ مَلِكَيْنِ؟ فَأَقْرَأَ الرِّسُولُ أَنَّ ذَاكَ كَانَ لَتَقْصِيرِ رَأْيِهِ مِنَ الْمَوْجِهِ إِلَيْهِ. قَالَ الْإِسْكَندَرُ: فَأَرَاكَ سَعَيْتَ لِنَفْسِكَ لَا لَنَا، فَلَمَّا فَاتَكَ بَعْضُ مَا أَمَلْتَ جَعَلْتَ ذَلِكَ نَاراً فِي الْأَنْفُسِ الْخَطِيرَةِ الرَّفِيعَةِ ثُمَّ أَمَرَ بِلِسَانِهِ فَفَرَزَعَ مِنْ قَفَاهُ.

(٣) ك: «بالرسول».

(١) ك: «ينقضها».

(٢) ك: «المملكة».

محاسن الحجاب

يقال: إن ملوك العجم كانت تأخذ أبناءها بأن يعاملوها بما تُعامل به عبيدها، وألاً يدخل أحد من الولد عليها إلا عن إذنها؛ وأن يكون الحجاب عليهم أغلظَ منهم على مَنْ دُونهم من بطانتها وخدمِها، لئلاَ تحملهم الدالة على تعدى ميزان الحق؛ فإنه يقال: إن يزدجرد، رأى بهرامَ بموضع لم يكن له، فقال له: مررت بالحاجب؟ قال: نعم، قال: وعِلِمَ بدخولك؟ قال: نعم، قال: فاخرج إليه فاضربه ثلاثين سوطاً، ونَحِّه عن السَّتر، ووَكِّل بالحجاب أزامرد. ففعل بهرام ذلك، وهو إذ ذاك ابن ثلاث عشرة سنة، ولم يعلم الحاجبُ فيم غضب عليه الملك!

فلما جاء بهرام بعد ذلك ليدخل^(١)، دفع أزامردُ في صدره دفعةً أوقذه^(٢) منها، وقال له: إن رأيتك بهذا الموضع ضربتك ستين سوطاً لجنايتك على الحاجب الأول، وثلاثين لئلاَ تطمع في الجناية على. فبلغ ذلك يزدجرد، فدعا بأزامرد، فخلع عليه ووصله.

ويقال: إن يزيد بن معاوية كان بينه وبين أبيه باب، فكان إذا أراد الدخول عليه قال لبعض جواريه: انظري هل تحرَّك أمير المؤمنين؟ فجاءت الجارية حتى فتحت الباب، ومعاوية قاعدٌ في حجره مُصَحَّف، وبين يديه جاريةٌ تصفح^(٣) عليه، فأخبرت يزيد بذلك، فجاء يزيد حتى دخل على معاوية، فقال: يا بُنَيَّ، إنما جعلتُ بيني وبينك باباً كما بيني وبين العامة؛ لتدخل على وقت إذنك، فهل ترى أحداً يدخل على من ذلك الباب؟ قال: لا؛ قال: فكذلك إذنك.

وذكروا أن موسى الهادي دخل على المهدي وهو خليفة، فزَّبره^(٤) الحاجب، وقال: إياك أن تعود إلى مثلها إلا بإذن أمير المؤمنين لخاصته!

وذكروا أن المأمون لما اشتدَّ به الوجع، سأل بعضُ بنيه الحاجب أن يُدْخِلَه عليه ليراه، فقال: لا، والله ما إلى ذلك سبيل، ولكنْ إن شئتُ أن تراه من حيث لا يراك، فاطَّلَع عليه من ثقب في ذلك الباب فجاء حتى اطلَّع عليه، وتأمَّلَه وانصرف.

وحكى عن إيتاخ أنه بَصُر بالوائق في حياة المعتصم واقفاً في موضع لم يكن له أن يقرب منه،

(٣) ك: «تصلح بذلك».

(٤) ك: «فزجره».

(١) ل: «أن يدخل».

(٢) أوقذه: تركه عليلاً.

ولا أن يقف به، فزبره وقال: تنحّ، فوالله لولا أني لم أتقدّم إليك لضربتك مائة سوط.

وكانت الأعاجم تقول: ما شيء بأضيع للمملكة، ولا أضيع للرعية من صعوبة الحجاب، ولا شيء أهيب للرعية من سهولة الحجاب لأن الرعية إذا وثقت من الوالى بسهولة الحجاب، أحجبت عن الظلم، وإذا وثقت منه بصعوبة الحجاب، هجمت على الظلم، وركب القوى منهم الضعيف، فخير خلال السلطان سهولة الحجاب.

قال: وقال خالد بن عبد الله القسري: لا يُحجّب الوالى إلا ثلاث خصال: إمّا رجل عتّى فهو يكره أن يعرف الناس منه ذلك، وإمّا رجل مشتمل على سوءه^(١) فهو يكره أن يطلع الناس على ذلك فيه، وإمّا رجل يكره مسألة^(٢) الناس إياه.

قيل: واستأذن أبو سفيان بن حرب على عثمان بن عفان رحمه الله فحجبه، ف قيل له: حجبك أمير المؤمنين! فقال: لا عدمت من قومي من إذا شاء حجبتى^(٣).

قال: وقال الرشيد ليشير بن ميمون لما ولّاه الحجة: يا بشر، صنّ طلاقة اسمك بحسن فعلك، واحجّب عني من إذا قعد أطل، وإذا طلب أجال فكره، ولا تستخفنّ بدوى المروءة والحُرمة، فإنهم إن مدحوا تلبّوا، وإن دُموا أزالوا.

وذكروا عن الربيع الحاجب، أن المنصور دعا محمد بن عيسى بن عليّ إلى الغداء، فقال: يا أمير المؤمنين، قد أكلتُ. فلما خرج أخذه الربيع، وحمله على ظهر رجل، وضربه كما يضرب الصبيان. فظن أهل بيته أن المنصور أمره بذلك، فخرج يركب إلى أبيه، فجاء أبوه عيسى بن عليّ، فخلع سيفه بين يدي المنصور، وصاح، فقال: ما أمرت بذلك، ولم يفعل الربيع ذلك^(٤) إلا لأمر فلما سئل الربيع عن ذلك قال: أمرته أن يتغدى معك، فقال قد أكلت، وإنما دعوته لتشرّفه وترفع منه، ولم تدعه لتشبعه^(٥)، فأدبته إذ لم يؤدبه أبوه، فقال المنصور أحسنت! قد علمت أنك لا تخطئ.

قال: وقال المهديّ للفضل بن الربيع حين ولّاه الحجة: إني موليك ستر وجهي وكشفه، فلا تجعل الستّر بيني وبين الناس سبب إراقة دمائهم بعبوس وجهك في وجوههم، فإن لهم دالة الحُرمة وحُرمة الاتصال، وقدم أبناء الدّعوة، وثنّ بالأولياء، واجعل للعامة وقتاً إذا وصلوا أعجلهم ضيقه عن التلبث والتحكّث.

(١) ك: «ما ذكرت».

(٥) ل: «تتشبع منه».

(١) ك: «سوء».

(٢) ك: «مسألة».

(٣) الخبر في العقد ١: ٧٣.

وكان أول من حَجَّبه الحسن بن عثمان، ثم الفضل بن الربيع، وكان الهادي ولي حجبته الفضل بن الربيع بعد الربيع، وقال له: لا تحجب عني الناس، فإن ذلك يُزيل عني التزكية، ولا تلق إلى أمرًا إذا كشفته وجدته باطلاً، فإن ذلك يوهن الملك، ويضرُّ بالرَّعية.

قيل: وقال الواثق لابن أبي دُواد: مَنْ أولى النَّاس بالحجبة؟ فقال: مولى شفيق يصون بطلاقة وجهه مَنْ ولَّاه، ويستعبد النَّاس لمولاه، فنظر إلى إيتاخ - وكان واقفاً على رأسه - فقال: قد ولَّاه أبو عبد الله الحجبة، فكان إيتاخ يعرف ذلك له، ويتقدَّم بين يديه إلى أن يبلغ مرتبته.

قال: وقال رجل لزياد: إنَّ حاجبك؛ إنما يبدأ بالإذن لمعارفه، فقال: قد أحسن، المعرفة تنفع عند الكلب العقور، والأسد المصور، وبين لحى البعير الصنول؛ كُنْ من معارفه، فقد قيل: التعارف^(١) نسب، وقبح الله معرفة لا تنفع!

وكان ليحيى بن خالد حاجبٌ قبل الوزارة، فلما صار إلى الوزارة^(٢) رأى كأنه تناقل عن حجابته، فقيل له: لو اتخذت حاجباً غيره! قال: كلاً هذا يعرف إخواني القدماء.

وقال الشاعر في مثله:

هَسَّ إِذَا نَزَلَ الْوُفُودُ بِيَابِهِ سَهْلُ الْحِجَابِ مُؤَدَّبُ الْخُدَامِ
وَإِذَا رَأَيْتَ شَقِيقَهُ وَصَدِيقَهُ لَمْ تَدْرِ أَيُّهُمَا أَخُو الْأَرْحَامِ
[الكامل]

وقال خيط القنديل في محمد بن عبد الله بن طاهر:

يَأْتِيهَا الْمَلِكُ الْمَحْجُوبُ أَمِلُهُ وَرَاءَ بَابِكَ هُمْ غَيْرُ مُشْتَرِكِ
وَكَمْ أَقُولُ فَلَا يَجِدُنِي فَيَجِدُنِي وَلَا أَرَى مُدْنِيًا مِنْ قَبَةِ الْمَلِكِ
وَقَدْ تَحَصَّنَ مِنِّي فِي مُحَصَّنَةٍ خَلْقَاءُ خَلْفَ وَشِيحِ السُّمْرِ وَالْحَسَكِ
أَصْبَحْتُ كَالشَّمْسِ لَا تَخْفَى عَلَى أَحَدٍ لَكِنْ مَطْلَعُهَا فِي سُورَةِ الْقَلَمِ
يَالَيْتَ رِيحَ سَلِيمَانَ مَسْخَرَةً إِلَيْهِ تَحْمِلُنِي أَوْ مَنْكِبِي مَلَكِ
فَلَسْتُ دُونَ أَنْاسٍ كَانَ سَهْمُهُمْ سَهْمُ النَّجِيجِ فَنَالُوا غَايَةَ الدَّرَكِ
فَإِنْ ظَلَمْتُ وَلَمْ أَنْصَفْ فَقَدْ ظَلَمْتُ بَنَتْ النَّبْيُ - كَمَا قَدْ قِيلَ - فِي فَدَكِ^(٣)

[البسيط]

(١) ك: «المعارف».

(٢) ك: «رأه».

(٣) فدك: قرية بالحجاز؛ بينها وبين المدينة يومان؛ أفاءها الله على رسوله ﷺ في سنة سبع صلحاً وفيه عين فوارة ونخيل كثيرة؛ وهي التي قالت فاطمة: إن رسول الله نحلنيها وانظر معجم البلدان ٧: ٣٤٣.